ضياع ديني

ضياع ديني

جيفري لانغ

ترجمة
إبراهيم يحيى الشهابي

(مختصر)

إعداد

حياة شمس الدين

مقدمة الناشر

هذا الكتاب بمثابة نداء وصرخة استغاثة من المسلمين في الغرب، من الذين يعيشون وراء البحار في بيئة ومناخ فكري مختلف.

و«جيفري لانغ» هو أيضاً يطلق صرخته لإدراك عقيدة الأجيال التالية من المهاجرين المسلمين لأمريكا، قبل أن يغرقوا في خضم الثقافة الأميركية المزدهية بالتفوق والهيمنة، والمليئة بالاستهلاك والإباحية والإغراء وجيفري لانغ كان قد أسلم منذ حوالي عشرون عاماً، وقد رحَّب به المسلمون بانضمامه إليهم.

لقد استطاع (جيفري لانغ) أن يُحصِّل دينه بكدٍ ذهنه وإعمال فكره وعرق جبينه، ومعاناة بحثه عن الحقيقة، بعد أن كان يعيش ملحداً وغارقاً في بحر من الشكوك، صار يبددها وهماً إثر وهم حتى انتقلت به هذه الرحلة من الشك إلى اليقين، وهو اليوم يخشى على غيره من عاقبةِ الجهل والكسل، ويحمل الإسلام رسالة إنسانية حيّة، لتصبح أملاً وتترك أثراً.

إن الخطاب المنغلق على الذات الذي يغرق في السلبية، لا تطيق الرسالات أن تمكث فيه، فيضمر ويتحوّل من وراء جدر.

هذا ما وقع فيه أتباع الرسالات السماوية السابقة وقد حذَّرنا الله من الوقوع فيه بعد طول المدة وقسوة القلب، والوقوف في حال واحده بدون تقدم في زمن تضاعفت فيه معلومات ومعارف الإنسان، ولا يكاد المسلمون يساهمون في هذه المعارف ما يجاوز الصفر.

ـ لقد استطاع جيفري لانغ أن يجيب عن أسئلة وموضوعات أُشكلت على

المسلمين من الجيل الثاني في أمريكا كانوا يشكون من تزمت القائمين على المراكز الإسلامية في الغرب الذين نقلوا عاداتهم وتقاليدهم من بلدانهم وحرصوا عليها أكثر من حرصهم على روح الإسلام ومقاصده العليا، وعن موضوعات أشكلت عليهم في القرآن والحديث الشريف، وسألته المرأة التي تعاني من الإسلام التقليدي الذي يحرص على مظاهر الإسلام وينسى روحه وتعاليمه الأساسية التي تهتم بالقيم والأخلاق وطرحوا عليه معاناتهم من بيئة اجتماعية تتناقض مع أحكام الإسلام.

إنه القلق الذي يساور الشباب في الحالتين:

ـ جيل يطلب التشبُّث بالدين ويسأل عنه، فيجيبه الجيل السابق ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ الشعراء.

ـ وجيل ممن أخرجه زخرف المادة وثنته العلمانية عن الدين فرأى نفسه لم يحصل على شيء ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ النور. فصار يبحث عن حقيقة مقنعة.

ومن جملة الأسئلة التي وردت بكثرة، هي إشكالية الحديث النبوي، وسيصدر كتاب مستقل للإجابة عن هذه الأسئلة.

محمد عدنان سالم.

المقدمة

ذات مساء صيفي قبل بضع سنين، كنت وإبنتي «جميلة» نتمشى في المنطقة المجاورة، عندما فاجأتني بالسؤال التالي: بابا ماذا ستفعل إن صرتُ مسيحية في يوم ما؟

وقد طرَحَت هذا السؤال بجديَّة، وهي في التاسعة من العمر.

ظننت أن قلبي قد توقف لحظة، ووقفت عاجزاً عن الكلام وأحسست بخواءٍ في صدري وفي جوف معدتي، فهي إبنتي التي شهدتني أُلقي محاضرات في طول البلاد وفي عرضها عن الإسلام، والتي ترافقني كل ليلة إلى الصلاة، والتي جرى بيني وبينها أحاديث عديدة عن الدين!

سألتها محاولاً جهدي أن أكون متزناً غير متلعثم، وقلت لها: هل تعرفين شيئاً عن المسيحية؟ فأجباتني قائلة: فقط كنت أتساءل إن كنت ستغضب مني؟

هل غضب جدي، وغضبت جدتي منك، عندما تخليت عن المسيحية؟

تذكرت الصدمة التي ظهرت على وجه أمي والهياج الذي أبداه أبي، فقد انهارت أمي، وهددني أبي بالطرد من البيت.

أجبت إبنتي: الغضب ليس هو الكلمة المناسبة ولكنني سأحبط جداً لأنني أجد سلاماً وجمالاً رائعاً في الإسلام، وأود أن يشاركني أبنائي هذا الجمال، فكل ما يهمني هو عقيدتي وأسرتي.

سرنا بهدوء قليلاً، ثم قالت إبنتي أنا لا أفكر أن أكون مسيحية، ولكن من الصعب على المرء أن يكون مسلماً في أمريكا.

سررت بأن ابنتي أفصحت عن مشاكلها وأرادت أن أكون عوناً لها.

قلت لها: جميلة، عليك أن تعلمي قبل كل شيء أنني أحبك وسأظلّ أحبك دائماً مهما كنتِ، ومهما حدث، ولن يتخلى عنك قلبي، وعندما تكبرين ستختارين ما تعتقدين به من الصواب، وسأكون لك عوناً وناصحاً، المهم أن يكون تفكيرك صادر عن فهم ومعرفة. على كل حال، لماذا تشعرين أنه من الصعب أن يكون المرء مسلماً في أمريكا؟

وملخص ما فهمته أنها تشعر بقيد العقيدة في بيئة مختلفة في المدرسة والمجتمع.

وأعتقد أن الكثير من الأطفال الأميركيين المسلمين لهم مثل هذه المشاعر، فالجالية المسلمة يزدريها الكثير من الأميركيين ويخشونها، ويحب الأطفال أن يكونوا محبوبين في بيئتهم، وربطهم بشعب يحتقره الغير هو مصدر قلق لهم، لأن الإسلام اتخذ مساراً سلبياً بعد الحادي عشر من أيلول سنة 2001، وكان الموقف الأمريكي بشكل عام قبل ذلك، موقفاً سلبياً اتجاه المسلمين.

لقد قرأت بحث قام به أحد مراكز الأبحاث سنة 2001، يقول: أن أكثر من تسعين بالمائة من الصور والأفلام والروايات التي عُرضت بالإنكليزية في التلفاز وأفلام الكرتون والكتب الهزلية وألعاب الفيديو، كانت صور سلبية عن الإسلام.

يقضي الطفل جزءاً كبيراً من وقته في المدرسة، والأجواء مليئة بالتعصب ضد الإسلام.

والأكثر سوءاً هو أن بعض المدرّسين محدودي الفكر كبعض الأطفال.

ومنذ بدأت علناً أتحدث عن الإسلام، وقد وردتني رسائل مسلمين من

جميع أنحاء الولايات المتحدة الأميركية، يتشكلون من مدرِّسين يحتقرون الإسلام في الصف.

ففي هذا العالم مثلاً، كانت مدرِّسة التربية المدنية تقول لطلاب السنة السابعة: أن الإسلام يشجِّع على العنف، في حين أن المسيحية تحث على السلام. وقد قالت مدرسة إبنتي «سارة» وهي من طلاب السنة التاسعة: إن المسلمين ناكرون للجميل لأن الحكومة الأميركية تقدم لهم المساعدات، فيقابلونها بالهجمات الإرهابية.

ومن المظالم التي تقوم بها معاهد التربية والتعليم. هي إهمال الأعياد الإسلامية في المدارس إهمالاً كليّاً حتى لو أحاطها آباء الطلبة المسلمين علماً بحلول هذه الأعياد، في حين يُطلب من الطلبة المسلمين أن يشاركوا في الأعياد اليهودية والمسيحية.

ينظر الأمريكيون نظرة تحيُّز وتحامل على المسلمين لأن سلوكهم مخالف لقواعد السلوك الاجتماعي الأمريكي، فالممارسات الجنسية قبل الزواج، تُعدّ في أمريكا، عادة مقبولة وجذَّابة في حين أن القرآن يعتبر هذه العلاقات قبل الزواج جريمة ويعاقب عليها، ويُعدّ اقترافها من أخطر الآثام.

كذلك فإن شرب الخمر محرَّم عند المسلمين، بينما يُشجَّع عليه ويُحتفل بشربه في أمريكا.

كما أن الأزياء الغربية تُصمِّم الألبسة بحيث تكشف جمال المرأة، أما لباس المسلمة يخفي ذلك الجمال، إضافة إلى أن المسلمين يحثُّهم دينهم على احترام الكبار احتراماً مبالغاً، ويُصدمون عندما يرون عدم الاكتراث والوقاحة التي يُعامِل بها الأطفال الأميركيون آباءهم وأمهاتهم، وهناك أمثلة أخرى تبين مدى الاختلاف بين المسلم الملتزم بشعائر دينه وبين الأميركيين.

إن هذا الاختلاف بين الثقافة الإسلامية وبين الثقافة الغربية يزداد، لأن المسلمين خلطوا بين الثقافة وبين الدين، فإن غالبية المساجد في أميركا يديرها

مهاجرون أو طلبة يدمجون العادات والتقاليد التي لا علاقة لها بالنص الديني القرآني، ويتبنَّى زعماء الجالية الإسلامية غالباً وجهة النظر الأكثر تشدُّداً معتمدين على احاديث من السُّنة النبوية، ضعيفة وغامضة.

والناس يخافون عادةً من القسوة والجمود ومن التديُّن المتشدِّد، فتكون ردَّة الفعل بأن يلجأ أكثر الشباب المسلم إلى النمط الشائع في الثقافة الغربية.

يتجلَّى التشدد الديني المتزمت بوجه خاص في معاملة النساء عند الجالية الإسلامية الأمريكية، فلا يسمح للنساء عادةً من تأدية الصلاة في المسجد، وإن سُمِح لهنُ يُعزلن في غُرفة بعيدة عن قاعة الصلاة الرئيسية، ومن ثم لا يُرى من زوار المساجد سوى الرجال، كما أنه يُفصل بين الرجال والنساء في أكثر اجتماعات الجالية، كالمحاضرات، أو ولائم العشاء. أو الاحتفالات بالأعياد والمؤتمرات.

ومع بقاء الهيمنة على المؤسسات الإسلامية الأمريكية، سيجعل المسلمين المولودين في أمريكا، يشعرون بالابتعاد فكرياً واجتماعياً عن تعاليم الإسلام الصحيحة. فالثقافة التي يعيش فيها المسلم الأمريكي الشاب تمجِّد الحرية والعقلانية الفردية، بينما المسلمون التقليديون يعتبرون أن التقاليد والعادات هي خالدة في نظرهم لا تقبل التغيير.

إن الكثير من تقاليد المسلمين وأعرافهم لم تترك المجال لإعادة التفسير والتأويل والتكيُّف، ولذلك فسحت مجالاً واسعاً لخلق الشكوك في أذهان الشباب المسلم.

وهكذا يولد الأطفال المسلمون في أمريكا، في خضم صدام ثقافات متنافرة، وبين ثقافة المسجد، وبين الثقافة الأمريكية السائدة.

ولذلك فإن أكثرية المسلمين من الجيل الثاني وما بعده يختارون الإبتعاد عن المسجد.

ولا غرابة أن يتأثر هؤلاء الشباب بالثقافة الأمريكية وهي الأكثر دينامية في

العالم، والتي أثّرت في أقصى مراكز الأرض بالتكنولوجيا والأزياء ووسائل الترفيه والتسلية، حتى شاعت في كل بلاد العالم، ومنها البلاد الإسلامية نفسها فهم يقلدون الأميركيين ويشاهدون الأفلام الأميركية.

وبما أن الممسكين بالنموذج الإسلامي التقليدي والمتشدِّد هم من يسيطر اليوم على المساجد، فإنه صعب على الأجيال الجديدة أن يروا أي صلة لهم بالإسلام.

ولا بد لنا من الإعتراف بأن غالبية الشباب المسلمين غير مرتاحين للجالية الإسلامية الأمريكية، وكذلك فإن الجالية نفسها غير مرتاحة وتشعر بالفجوة الثقافية الكبيرة بينها وبين الأجيال الجديدة التي تكتسب بسرعة طرق التفكير الأميركية وعاداتها، ثم تنشأ الأزمات بين الآباء المسلمين الأتقياء وأولادهم.

وعندما تواصلت مع هؤلاء الشباب، أكّدوا لي أن غير المسلمين يقبلونهم أكثر مما تقبلهم الجالية الإسلامية، وتُعتبر هذه القضية عامل مهم من عوامل إبعاد الجيل الثاني عن الإسلام.

إن من الأمور الأكيدة والحاسمة التي تبعث الحيوية في أي مجتمع ديني، هي قدرته على اجتذاب الأبناء والأحفاد وغيرهم من الذين يعيشون في الولايات المتحدة.

وقد دخلت أعداد كبيرة من الأفارقة إلى الإسلام منذ ستينيات القرن الماضي، وحالهم كبقية المسلمين هناك.

لقد ارتدَّ عدد من المسلمين، يقدَّر حوالي العشرة بالمئة ومع ذلك فإن الإهتمام بهذا الموضوع لا يلقى العناية الكافية.

ولقد تلقيت استغاثات من آباء ارتدَّ أولادهم عن الإسلام، فلماذا نتحاشى هذا الموضوع؟

وسوف يستمر هرب الأبناء المسلمين من المساجد ما لم تقرر الجالية مواجهة هذه المسألة بجدية كافية.

ولكن يجب أن نبحث أولاً عن الأسباب الكامنة وراء هذه المشكلة. ومن هذه الأسباب؟

ـ إن ثقافة المسجد هي ثقافة شرق أوسطية وهي ثقافة متخلفة.

ومن الرسائل الألكترونية التي جاءتني من الآباء المسلمين وممن اعتنقوا الإسلام يطلبون مني الكتابة عن أنواع عديدة من القضايا الدينية، وأبدى الغالبية العظمى منهم بأنهم على وشك التخلي عن دينهم وأن شكوكاً كثيرة تراودهم، لا يجدون جواباً لها.

وقد صُدمت صدمة عميقة بأولئك الذين أصابتهم الشكوك، وشعرت بأنني لست أهلاً لهذه المهمة، ولكن ابتكرت في حاسوبي الشخصي، ملفاً أسميته (ضياع ديني) أجمعُ فيه الأسئلة وأجيب عنها بعد بحث ودرس.

وهذا الإجابات تشكل فصول هذا الكتاب.

القسم الكبير الذين بعثوا برسائلهم، قالوا: إنهم يجدون العلم الديني صعب، وهؤلاء مسلمون بالوراثة، مع أن الذين اهتدوا إلى الإسلام حديثاً يؤكدون بساطة العقيدة الإسلامية وتماسكها.

وأنا أرى أن العلوم الدينية الموجودة حالياً، هي تنظير وتفسير بشري لعلماء قدامى، ولا يمكن لهذا التفسير القديم للقرآن والسنَّة أن يكون مثقفاً وكاملاً بالمطلق، ولكن المسلمين التقليديين يصورون أن رأي العلماء القدامى بأنه الرأي المثالي، وهذا هو سبب الصراع الذي يدور بين الإيمان التقليدي الذي هو بمعظمه تقاليد موروثة وبين الإيمان في الوقت الحاضر الذي يعتمد على العقل.

حاولت أن أجيب عن الأسئلة العقائدية، وأوضح لأصحاب الرسائل، بأن ما أقدمه ليس هو الحقيقة الخالصة التي لا مراء فيها، ولكنها محاولة لإشراكهم في خبرتي من خلال قراءة القرآن الكريم، وأبيّن ما هو الهدف الأساسي الذي فهمته من هذا الكتاب العظيم، ولا أريد أن أتحدث عن التفاصيل بإسهاب، بل

أن أشارك القارىء بالحديث عن المشاكل والصعوبات التي تتعرض لها الجالية الإسلامية في أمريكا.

وقد أُحبِطت محاولات النشطاء الإسلاميون من طلاب وغيرهم من إقامة مجتمع إسلامي قابل للحياة في الولايات المتحدة الأميركية.

إنني اعترف بضخامة المشكلة التي يواجهها المسلمون في أميركا، وأنا لست خير من يتصدى لها، ولكن هذا الكتاب سيكون محاولة وخطوة أولى تنتظر من هم أكثر أهلية مني.

الفصل الأول:

ضياع ديني

كنت في الثامنة من العمر، أنام في سريري آخر الليل حينما أيقظني صياح والدي في في الطابق الأسفل، رجل ضخم قويّ طوله ستة أقدام، قبضتاه ضخمتان كالملزمة يفتخر ويلوح بهما، وكنت أسمع مع هذا الصراخ والتهديدات صوت أمي المخنوق، وكأن عاصفة عنيفة أيقظتني في منتصف الليل، ثم سمعت صوت ارتطام مفاجىء، فهرعت إلى الطابق السفلي، ولدى وصولي إلى المطبخ، رأيت أمي ملتصقة بطاولة المطبخ، وجسد والدي متكىء عليها، وهي تحاول أن تبتعد عنه، وهو يكيل لها الإهانات بصوت هادر ممسكاً ذراعها بقبضتيه الضخمتين.

أخذت أفكر بطريقةٍ لإيقافه وأنا مرعوب ينتابني الهلع ألهث بصوت عالٍ، ويبدو أن والدي أدرك وجودي فتوقف عن الصراخ، تقدمت خطوة لأرى إن كانت والدتي قد تضرَّرت، فأدرات رأسها نحوي، وتغيَّرت تعابير وجهها بسرعة حتى لا أخاف، وحاولت أن تكون متماسكة، وقالت لي بلهجة موزونة جداً «جيف» لا تقلق إننا نتناقش في أمر ما ليس إلا، أرجوك يا ولدي أن تعود إلى سريرك، أجبت أمي بشفتين مرتجفتين محاولاً أن لا أبكي: حسناً أمي واستدرت عائداً إلى الطابق العلوي.

نشأت في مدينة صاخبةن مملوءة بالعنف، وفي بيتٍ لا يقل عنها عنفاً وصخباً.

كانت أمي تعمل رئيسة للممرضات في قسم الطوارىء، في مستشفى قريب

في المنطقة، وكان والدي على الدوام متوحشاً مدمراً، يحاول أن يكبت غضبه، كل ليلة يشرب ويفرط بذلك، وإدمانه على الخمر يجعله أكثر إثارة وتقلباً في المزاج، إذ تراه يضحك ويمزح في لحظة، ويستشيط غضباً في اللحظات التالية.

كنت أشعر دائماً أن أدنى إشارة تجعله ينفجر ولا يهدأ، ولا يأوي إلى الفراش إلا بعد ساعات، وبعد تناول قدر كبير من الخمر.

عشت وإخوتي الأربعة طفولة قلقة يسودها الرعب، وأسوء ما كان في حياتنا هو رؤية والدي وهو يوبخ أمي بطريقة ساخرة مهينة ويهددها.

أن أكون هدفاً لغضب والدي ولكماته ورفسه بقدمه ومطاردته لي أهون بكثير من رؤيتي لوالدي وهو يهجم على أمي، وهي المنبع الوحيد للحنان واللطف والحب والحماية، فعند ذلك كنت أشعر بفقدان كل شيء.

والأهم من ذلك كله، هو الشعور بالإثم الذي كان يجتاحني من جهات مختلفة، كنت أشعر بالذنب لأني أكره والدي، وأشعر بالذنب أيضاً لأنني لا أستطيع أن أفعل لها شيئاً لأمنع الظلم عنها، وأحياناً كنت أشعر بأنني سبب في إثارة الجدال بين أمي وأبي. ونتيجة هذه المشاعر كنت أكره نفسي.

عندما سرت في جنازة أمي بعد بضع سنين، كان الذين يعزّونني يقولون: «أمك يا جيف كانت قديسة حقاً»، ويبدو أن كل من كان يعرفها يشفق عليها ويعجب بها لتحملها والدي طيلة تلك السنين التي عاشتها معه بكل صبر وقوّة ورحمة ومرح، ومع ذلك كله لم تُعِدّ نفسها ضحية أبداً، لأنها تعتقد أن عقد الزواج الذي عُقِد مع زوجها عندما كانت في الحادية والعشرين من عمرها، زواج لا يمكن انتهاكه، وكانت تقول دائماً أنها تحب والدي، الأمر الذي كان من الصعب عليَّ أن أفهمه.

كانت أمي قوية الإرادة واثقة بنفسها تنبض بالحيوية والنشاط، وكان شعارها المفضل: «حيث تتوفر الإرادة، تتوفر الوسيلة» وتقول: » كل شيء ممكن بعون الله، وأنه لا يمكن لأحد أن يستطيع تدميرها أو إذلالها.

لقد صدمنا جميعاً عندما أصيبت في السابعة والستين من عمرها بانهيار عصبي، وقد كنا نؤمن بأن عزيمتها لا تضعَف ولا تُدمَّر، وبعد ذلك لم تعد هي أمَّنا التي نعرفها، إذا قضت السنوات الست الأخيرة من عمرها تصارع الإكتئاب والمرض وقد توفي والدي بعدها بسنة واحدة.

ما زلت أفتقد أمي وأشعر بالوحشة، لأنها كانت الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أحبه، وكانت أقرب الأصدقاء لي، وحاميتي وبطلي الوحيد، كانت كاثوليكية عميقة الإيمان، وتعمل ممرضة متفرغة، وقد وقَفَت حياتها للآخرين، ويحبها الجيران كلهم، وقد عُرِفت بإحسانها وعطائها.

أتذكر كيف كانت تزور بانتظام كبار السن وفارغي الصبر وسيئي الطبع، كانت تزور جارة إيطالية لتغسل قدميها وتقلِّم أظافرها، وأتذكر كم كانت تعطف على مرضاها في المستشفى، وكيف كان حديثهم عنها مفعماً بالدفء والحب. كنت أسمع ذلك عندما كنت في العقد الثاني من عمري لأصطحبها إلى البيت من العمل، كانت صادقة ومخلصة وأمينة، لم تشتم أحداً، ولم تعامل أحداً بوقاحة قط، وفوق ذلك كم كانت تحب أولادهان وتشقى لتعلّمنا وتوفر لنا حياةً سعيدة، رغم التعقيدات كلها، عندما كنت صغيراً كنت أحلم بحياة ليست فيها والدي كنت اريد أن يختفي العنف والخوف، وكنت أشعر أني أعيش حلماً مخيفاً ومرعباً لا مخرج منه، وكنت أصلي وأدعو الله أن يزيح والدي من حياتنا، لتتوقف هذه المعاناة، ولكن والدي ظلَّ موجوداً دائماً، فصرت أشك منذ صِغري بوجود الله، ولم أستطع أن أفهم السبب الذي جعل الله يحكم على والدتي بالعقاب مدى الحياة مع أنها لم تقترف أي ذنب ليكون جزاءنا مثل هذا الأب كنت أصغر من أن أدرك الحكمة التي تجعل أمي تعاني من عنف والدي وسوء معاملته، ولماذا يترك الله أولاداً يرتعدون خوفاً في فراشهم كل ليلة، يخشون أن لا يروا أمهم صبيحة اليوم التالي.

كانت الفوضى والعنف تسيطر على حياتي، ولهذا كان سهلاً عليَّ أن أشكَّ بوجود الله.

لم أترك المسيحية والكاثوليكية التي كانت ديني بالوراثة لسبب معين، ولكني تركت الإيمان بالله من الخوف والغضب والآلام التي ملأت قلبي بالجروح، ومما زاد في شكوكي بعدم وجود الله، هو الاضطراب الذي حصل في الستينيات والسبعينيات في القرن العشرين، فقد اغتالوا الرئيس كندي، ومارتن لوثر كنج، ومخازي الرئيس نيكسون ونائبه، وقتال العصابات التي تفجَّرت في مدن عدَّة منها مدينتي، ومذبحة فيتنام المؤلمة.

كل ذلك عزَّز وثبَّت الشعور الذي في نفسي، وهو أن العالم يسوده العنف العشوائي، وكنت أتساءل لماذا؟ لماذا هذا الظلم وهذا العنف كله؟ لماذا جعلنا الله ننحرف نحو الإجرام والفساد؟ لماذا لم يجعلنا ملائكة؟ لماذا ترك الأقوياء يعذِّبون الضعفاء؟

لماذا يترك الأطفال الأبرياء يتعذبون، كنت أريد أن أعرف لماذا؟ ولا يهمني من أين يأتي الجواب، من ملاكٍ أو شيطان.

كنت في السادسة عشرة من عمري عندما قررت أن لا أؤمن بالله، وبقيت كذلك مدَّة إثنتي عشرة سنة، وكنت كبقية الملحدين، لا أهتم بمعتقدات الآخرين، ولم أكن أبحث لنفسي عن معتقد أؤمن به، مع أني اكتشفت بعد ذلك أني ابحث دون أن أعي أو أدرك ذلك.

في سنواتي الجامعية الأولى، انجذبت اتجاه زملاء ملحدين ثم باتجاه يهود وبروتستانت، ولكن في السنتين الأخيرتين اقتربت من طلاب هندوس وبوذيين جاؤوا من وراء البحار، لم أكن أتعمَّد اختيار أصدقائي، بل كان ذلك عفوياً وعرضياً، ولكن كنت أتطلع لمعرفة أفكار الآخرين بشأن الدين، وكان إصغائي أكثر من كلامي، وإذا سُؤلت عن معتقداتي لا أخفيها ولكن إجاباتي كانت قصيرة، ولم يكن اعتقادي عقبة في طريق صداقاتي، لأن غالبية الناس غير مهتمة بالإلحاد كثيراً.

كان أصدقائي من اليهود والبوذية والهندوس مرتاحين إلى إلحادي، أما

بعض أصدقائي المسيحيين فلم يكونوا كذلك، وكان يحصل بعض الأحيان، بيني وبينهم بعض المجادلات الحادَّة.

في عام 1982، التحقت بجامعة (سان فرانسيسكو) وعُينت أستاذاً في أقدم جامعة يسوعية في أمريكا وكنت في الثامنة والعشرين من عمري، وبعد وصولي إلى هناك بوقتٍ قصير، كوَّنت صداقة مع أسرة مسلمة من السعودية، كانوا طلاباً ثلاثة في الجامعة، محمود وعمر وراجية قنديل، أخوان وأخت، كلهم في مطلع العشرينات من أعمارهم.

وبالرغم من أني كنت لا أعرف شيئاً عن الإسلام، ولكني كنت أظن ولا أدري لماذا؟ أن الدين الإسلامي هو من أكثر الأديان خرافةً، وقد جرى بيني وبين أصدقائي الجدد محاورات، ولم أكن أتذكّر كثيراً مما كانوا يقولوه، وقد سألني أصدقائي هؤلاء عن عقيدتي الدينية وأخبرتهم بأنني لا أؤمن بالله ولم ألاحظ أي رد فعل منهم، ولكن محمود قال شيئاً مفاده أن الدين يجب أن يقبل عن طريق الإيمان، لا عن طريق العقل، وقد سمعت هذا القول مرات عديدة بعد ذلك طيلة حياتي.

كنت أحياناً أترك باب مكتبي في الجامعة مفتوحاً لأن الطلبة يتركون على طاولتي ملاحظات وواجبات يومية، وبعد أن أخبرت أبناء قنديل بأنني ملحد، بعدها بيومين وجدت على مكتبي كتاباً سميكاً لونه أخضر، كتب على غلافه بالإنكليزية (القرآن الكريم).

فزعت واضطربت بادىء الأمر، وعلمت بعد ذك أن أبناء قنديل قد وضعوه، ولكن تساءلت لماذا وضعوه؟ فهل يريدون مني أن أدخل الإسلام؟ مع أنهم لم يكونوا متدينين باعترافهم هم، وقد أكّدوا لي أن حياتهم وأفكارهم متناقضة مع كثير من الأنظمة الإسلامية وكان لهم أصدقاء من غير المسلمين، ولكن عدت وفهمت بأنني عندما كنت أسألهم عن دينهم يجدون صعوبة في الأجوبة عن أسئلتي فقرروا أن يقدِّموا لي كتابهم بكل نيَّة طيبة.

هل أنت تتحدث إليّ؟

ـ فتحت الكتاب، وبدأت أقرأ في الصفحة الأولى:

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2].

أحسست برعشة تنتابني، وأخذت أفكر وأقول في نفسي: هل أنت تخاطبني؟

عدت للصفحة الأولى وقرأت سورة الفاتحة، وهي دعاء للهداية ثم أكملت وقرأت الآيات التي بعدها، وكان القرآن يجيب على دعاء القارىء ويبين له أن الهداية التي دعوتَ للحصول عليها موجودة في هذا الكتاب، وكنت كلما تقدَّمت في القرآن ازداد احترامي لمهارته.

لقد تأثرت بالطريقة التي جعلتني أكرر الإحساس الذي انتابني سابقاً، وشعرت بأن القرآن يخاطبني فعلاً بالفكر والروح.

إن مقدرة القرآن في إشغال القارىء بحديث ذهني وروحي تمنحه طاقة نفسية هائلة، وشعرت أنه لا بد للمؤلف أن يكون ذا بصيرة نافذة في الطبيعة البشرية وهذه القدرة ما زالت متأصلة فيه بقوةٍ بعد أربعة عشر قرناً من ظهوره أول مرّة.

الآيات التسع والعشرون الأولى من سورة البقرة تلخص ببلاغة وفصاحة نادرتين الموضوعات الكبرى التي يحتاجها الإنسان، فتقول:

أن على الإنسان أن يُسلِّم بوجود الله ونبوّة محمد واليوم الآخر.

وتصف هذه الآيات بأن المؤمنين المخلصين هم من استفادوا وانتفعوا بالقرآن، وأما الرافضون للقرآن، فهم منافقون ويخدعون أنفسهم لأنهم يضعون مصالحهم الدنيوية والذاتية فوق الإيمان بالله، فهؤلاء لا ينتفعون بقراءة القرآن إن لم يغيروا أفكارهم الخاطئة.

وتعرض سورة البقرة في الآيات، حكاية الرجل الأول والمرأة الأولى

(حواء وآدم) وهي تشترك في التفاصيل مع رواية الكتاب المقدس (الإنجيل والتوراة) وقد بدت لي هذه الآيات عميقة الأغوار، فقررت أن أقرأها ببطء وعناية سطراً سطراً لأرى ما هي الرؤيا المترابطة التي تهدف إليها.

تقول الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

فاجأتني هذه الآيات من سورة البقرة، ليس لأنها تبدأ بقصة رمزية، بل بالطريقة التي تعرض بموجبها هذه الحكاية.

إن الحكاية التي نشأتُ على سماعها، هي أن الله وضع عقوبة على البشر من أجل خطيئة آدم وحواء التي ارتكباها، كما يعتقدون بالديانة المسيحية، ولكن هذه الآيات تقول أن الملائكة هم من اعترضوا قائلين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ إن مسرح أحداث هذه الآية هو في السماء، وإن الآية لا تشير إلى أي خطيئة ارتكبها آدم أو حواء.

لقد بدا لي على الفور، أن للقرآن برنامجاً آخر، وأن له رسالة مختلفة كلياً، فإنه أجاب الملائكة بأن ركّز على ذكاء الإنسان بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

تعجبت للطريقة التي يجمع فيها هذا الكتاب، القدر الكبير من المعاني في كلمات قليلة، وكيف بيَّن أن الإنسان قادر على التعلم معتمداً على ذكائه وعلى تراكم المعلومات من الزمن الماضي إلى الحاضر.

وعندما رأى الملائكة هذه المقدرة للإنسان، وأنه يستطيع أن يتعلم ويستوعب بسرعة، قالوا: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

اعترف الملائكة بعجزهم عن مواجهة التحدي، فهم يفتقرون إلى الأهلية الفكرية التي تمكّنهم من إبتكار وفهم رموز المعرفة والحكمة.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: 33].

نجح آدم حين أخفق الملائكة مبيناً ذكاءه المتفوق عليهم، وبالرغم من أن آدم لا يملك كل الحكمة والعلم ولكنه يستطيع أن يكون عارفاً وحكيماً أكثر من الملائكة وتبيَّن لي أن القرآن لم يرفض صيغة الكتاب المقدس ولكن أعاد سبكها ليجعل لها المعنى الحقيقي والأصيل ويقول: صحيح أن الله خلق الإنسان وجعله قادر على ارتكاب الخطيئة، ولكنه منحه صفات أخرى لا يمكن للملائكة أن تدركها أو تقدرها حق قدرها. لقد تبيَّن لي أن الملائكة انتبهوا إلى جانب واحد من جوانب الشخصية البشرية، وهي قدرة الإنسان على ارتكاب العنف الشديد والأخطاء الجسيمة، ولكن لم ينتبهوا مثلي إلى الجانب الآخر من الطبيعة البشرية.

صحيح أن هناك أناس يستطيعون ارتكاب أخطاء فادحة، ولكن هناك أناس آخرون يستطيعون فعل الخير العظيم، وبعضهم قادر على التضحية بنفسه، وبأكثر الأعمال عدالة ونبلاً وإحساناً وكرماً من اجل الآخرين، ومن أقرانهم من البشر.

كان مثلي كمثل الملائكة، لم أفكر ولم أرى لزمن طويل، سوى الجانب المظلم من الشخصية البشرية ونحن نرى ونعرف نماذج كثيرة من كلا الإتجاهين، وغالباً ما يظهرون على مسرح الدراما البشرية، لذلك يمكن أن ينشأ الخير والشر من المحيط نفسه ومن الظروف نفسها.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 34].

إن القرآن يعتبر الشخصية البشرية الخيِّرة، هي أعظم وأهم من الشخصية الملائكية ولذلك قال للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا معترفين بتفوقه، وخضعوا لأمر الله، وبأن يكونوا في خدمة البشر المؤمنين والصالحين وخلفاء الله في الأرض.

ولكن الشيطان الذي رفض أن يسجد، يقال أنه كان من الجن وقد حشر

نفسه مع الملائكة، وكان متكبّراً ومغروراً وكان دور الشيطان هو دور المضلّل الخفي الذي يوسوس للإنسان بالأفكار الشريرة، كما أن الملائكة تُحفِّز الإنسان على عمل الخير، وهما صوتان متعارضان في عقولنا، وعندما تتصارع أفكارنا على مسألة أخلاقية فإن علينا أن نختار بين الخير وبين الشر، وهذا هو الإمتحان الإلهي الذي جعلنا نخضع له، ليتميَّز المؤمن من المنافق.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 35].

لاحظت بعد قراءة هذه الآية، أن حكاية آدم وحواء في الكتاب المقدس، تبدو أن الله غاضباً من آدم وحواء لأنهما تحدياه وأكلا من الشجرة، ولكن في هذه الآية فإن الله يخاطب آدم برحمةٍ، ويبين القرآن أن الشيطان هو الذي أغوى الـزوجـيـن: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: 120].

نستخلص من الآيات أن آدم وحواء قد ارتكبا خطأ وأن الله يعلم أنهما سيخطئآن، وأنه خلقهما وعندهم القابلية لذلك كما كل البشر، وقد ترك لهم الخيار، وقد فشل الزوجان في أول اختبار لهما مستقل.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: 36].

لم تشر الآية إلى أعظم خطيئة في تاريخ البشرية، وأن على البشر كلهم أن يعانون الآلام والصعوبات والموت من أجل هذه الخطيئة.

لقد وصفتها بمجرد «زلَّة» إن كلمة زلَّة بالإنكليزية (Slip)، وهي تعني إنزلاق مؤقت لموطىء القدم، خطيئة صغيرة بسيطة لا يترتب عليها نتائج هامة أو خطيرة. عدت وقرأت الآيات عدة مرات، ثم صرت أفكر، لماذا يعتقد الناس أن آدم وحواء قد اقترفا جريمة، مع أنها لم تكن جريمة قتل أو زنا، فليس الأمر سوى اكل من شجرةٍ ممنوعة..!!

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37].

ليس في الآية أي غضب أو توبيخ، وتدل الآية على أنها كلمات عزاء وأمل وقال: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: 38].

ترسم هذه الآيات صورة وديّة متعاطفة، فقد أُرسل الزوجان إلى الأرض، وهما مفعمان بالندم على ما فعلا ويعتريهما الخوف من الحياة في بيئة لم يألفانها، ولكن الله يطمئنها، بأنه سيرسل لهم هداية من السماء، وإذا اتبعوا هذه الهداية فلن يخشوا شيئاً، تماماً كما يواسي الأب أو الأم إبنهما بحنان، فيقول لهما: «أنا أعرف أنكم خائفون وأعلم أن تلك الحياة صعبة عليكم ولأكون معكم وأهديكم باستمرار، وما عليكم إلا أن تفتحوا أعينكم وقلوبكم على آياتي الكثيرة، وعندها لن يكون ما تخشونه».

لقد فهمت من هذه الآيات في القرآن، أن الحياة على الأرض ليست عقوبة، وأن لها غاية أكبر وأعظم، وأن الذي حصل مع آدم وحواء هو خطَّة إلهية مترابطة منسجمة للوصول إلى الهدف الذي يريده الله من الإنسان.

قرأت الآية التالية التي تقول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 39].

تعجّبت لماذا يلجأ القرآن لأسلوب الترهيب وقلت لنفسي سأكمل القراءة بالرغم من التهديدات، وأن الذي تلقيت الكثير منها في حياتي، ولم تُسفر هذه التهديدات إلا عن المقاومة والرفض لها، قد يستطيع القرآن تهديد الآخرين أما أنا فلن أخاف، ولكن سأستمر في تحليل هذا الكتاب سطراً سطراً.

لقد انزعجت من هذا التهديد، ولكن تاريخي القصير مع هذا القرآن علَّمني أنه عندما يُغضبني أي نص أو يثيرني، يتبيَّن لي بعد ذلك عن صحة وجهة نظرهِ التي لا أعرفها.

وقلت في نفسي: لنفترض جدلاً بأن وجود الله هو حق فلماذا يرفض الإنسان آياته ويكذِّبها، لأنه لم يدرك معناها مباشرة.

إن الآية تقول للقارىء بأن عليه أن لا يرفض نصائح الله وآياته وأن لا يتعجّل ويكذبها ويخالفها بدون علم أو تعقل كما فعل آدم وحواء، وعليه أن لا يخالف ضميره مهما كانت المعصية أو الخطأ، لأنه سيترتب على ذلك استهتار بذنوب أخرى تؤدي به إلى العذاب الكبير.

وإذا سألنا: هل يخالف البشر ضمائرهم؟ الجواب: نعم فهم يتعجلون، وأنا قد مررت بتجارب كثيرة، كنت أخالف ضميري وأنغمس بأخطاء، وكم مرّة سوَّغت لي نفسي أفعالاً تبدو بوضوح وجلاء أنها مدمِّرة للذات رافضاً أن أعترف حتى لنفسي بأخطائي، وكانت هذه الأخطاء تشعرني بالخواء الروحي والقلق، ثم أركب رأسي وأتابع السير في الطريق نفسها.

فهل يقول القرآن أن هناك أناس يسعون إلى شقائهم الذي سيعانون منه في اليوم الآخر وأن جهنم قد بدأت معاناتها بمعنى من المعاني في حياتهم بسبب كثرة أخطائهم التي تجعل من هذه الحياة جحيماً دائماً.

تدفقت إلى رأسي مئات الأسئلة، ولكني لم أستطع بعد رؤية الصورة الكبيرة، ولكني قررت أن أخوض المعركة إلى النهاية، ولا يعني ذلك أني آمنت بالله.

بعد أن قرأت هذه الآيات العشر من سورة البقرة، لم أستطع التوقف عن التفكير فيها، كنت أفكر فيها ليل نهار وفي أثناء الطعام وخلال ذهابي إلى عملي وإيابي منه، وعندما أجلس وحدي، وحين أشاهد التلفاز وعندما آوي إلى فراشي، وضللت اقلبها وأُراجعها في ذهني محاولاً تجميعها معاً كقطع الأحجية، وأصبحت هي المحك لإكمال قراءتي للقرآن وتقصياتي وبحثي ولكن كان ينقصني الصبر، فالقرآن لا يبحث فقط في غاية الحياة، فإنه يبحث في كل شيء له علاقة بهذا الهدف.

القرآن يشتمل على حكايات وأمثال وتحذيرات وأنباء سارَّة، إنه يحتوي أوصافاً درامية للجنَّة والجحيم وليوم الدينونة الأخير، وللأحداث الطبيعية والكوارث ويقدم توصيات وبراهين على أصوله الإلهية.

وفيه مناشدات عاطفية وروحية، ويستخدم الرمزية ويحث على استخدام العقل وحدوده، ويتحدث عن الوقائع والحقائق الخفية التي لا يدركها العقل البشري، ويبعث برسائل جلية خاطفة، ولا يطيل في أي موضوع، بل يرسم صوراً قويَّة واضحة.

أسئلة وأجوبة

السؤال الأول من طالب أمريكي مسلم في مدرسة ثانوية يقول: أواجه صعوبات في فهم حكايات القرآن، وهذا يثير في نفسي الشكوك، هل حدث لديك إشكالات مماثلة عندما قرأت القرآن وكيف تغلَّبت عليها؟

ـ **الجواب**: في أثناء قراءتي للقرآن لم أكن مهتماً بتاريخ الأحداث والقصص، بقدر ما كنت مهتماً أساساً بما سيقوله القرآن عن الغاية من الحياة، وبعد اعتناقي الإسلام ازداد اهتمامي بالأمور الأخرى، وأنا الآن قد بدأت بدراسة قصص القرآن بعناية أكثر.

على كل حال ليس القرآن كتاب تاريخ ولا كتاب سيرة، وإنما تتخلل القرآن بعض قصص الشخصيات، كما في التوراة والإنجيل، ولكن هي قصص تستخدم الرمزية والواقعية لتكشف حقيقةً معينة، مثل قصة آدم وحواء والملائكة، وكيف خلق الله أول إنسان، ولا يمكن القول بثقة مطلقة: هذه قصة تاريخية وهذه رمزية مثل قصة أهل الكهف، عندما تقرأ في التفاصيل» ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 22].

إن الغاية الأساسية، ليست التاريخ، بل هو عرض بعض الحقائق التاريخية التي فيها عبرة للحاضر، ويلفت القرآن إلى أن لا يضيع القارىء في المجادلات الحمقاء لتفاصيل القصة الدقيقة، وعليه أن يركِّز على الهدف الأصلي من القصة،

وهو أن هؤلاء الشبان الذين آمنوا في مجتمع ينكر وجود الله، فقد اعتنى بهم الله، وكانت نهايتهم سعيدة، وأصبحو مضرب مثل لكل المؤمنين.

السؤال الثاني من طالب أمريكي مسلم يقول: سمعت أنك أسلمت بعد أن قرأت القرآن و أتساءل: بما أنك أستاذ رياضيات، هل اكتشفت أي عجائب رياضية في القرآن أقنعتك به؟

ـ **الجواب**: أقول لك كما قلت في الجواب السابق: هو أنني لم أكن مهتماً بالبحث عن معلومات في القرآن، كنت أفتش عن المعنى الذي يضيفه القرآن عن الوجود البشري.

ولكن بعد متابعتي قراءة القرآن اكتشفت أموراً جلعتني أشك في إلحادي، الأمر الذي قادني في النهاية إلى اعتناق الإسلام.

إن التأكيدات الواردة في القرآن عن عجائب الطبيعة التي يصفها القرآن بالآيات، مثل تلك الآية التي تقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30].

هذه الآية تتحدث عن أن السماوات والأرض كانتا متصلتين وأن كل شيء حي أساسه من الماء.

والآية التي تقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي أن الشمس والقمر يسيران في فلكين دائريين والآية التي تقول:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ إن في هذه الآيات إيجاز عجيب ومنطق محيِّر، فيه حكمة مغلَّفة بعبارات رائعة الإتقان تشير إلى معرفة تتجاوز خبرة أي إنسان.

ثم إن مقدرة هذا الكتاب على الوصول إلى الناس المتعلمين والأميين والتأثير فيهم، لا يمكن أن تأتي إلا من لدن خبير بالنفس البشرية.

كنت أشعر وأنا أقرأ القرآن أني أزداد ثقافةً في استمرار، فهو يرفعني إلى آفاق من التفكير أعلى وأسمى، تتعلق بالحياة الإنسانية والمحاكاة الروحية.

ـ عندما اعتنقت الإسلام عام 1982، كانت الجالية الإسلامية في أمريكا منشغلة بدراسة معجزات القرآن وآياته الكونية، وكانت توزع مطبوعات عديدة حول التوافق بين العلم الحديث وبين العلم الذي جاء في القرآن.

هذا الحماس لإثبات الأصل الإلهي للقرآن طغى على البحث الأهم في القرآن، وإن كانت هذه الدراسات قد أشارت إلى حقائق مهمة في هذا المجال.

عند قراءتي الأولى للقرآن لم أهتم بهذه الأمور، ولكني عدت وأوليتها اهتماماً شديداً في القراءات التالية.

وكانت من دعائم قراري اعتناق الإسلام.

ـ السؤال الثالث من أمريكي اعتنق الإسلام في العشرين من عمره، يقول:

ـ لم أقرأ القرآن قبل اعتناقي الإسلام، ولكني أقرؤه الآن، لقد فهمت مراده بوجه عام، ولكن لديَّ أمور لم أفهمها، وكنت أتساءل: هل في القرآن أي بيانات تتعارض مع العقل؟

ـ **الجواب**: إنني أكذب لو قلت: إنني لم أشك في أي آية واحدة من آيات القرآن على أساس عقلي، ولكن هذه الأمثلة قليلة جداً، وقد فهمت أن المسألة هي مسألة تفسير أو ترجمة، وأن المنطق الإجمالي الحازم والمؤكد لا يتعارض مع العقل، وعلينا أن نميِّز بين التعارض مع العقل، والتعارض مع العواطف والآراء الشخصية، لقد بدت لي بعض العقوبات القرآنية قاسية في البداية ولكن هذا تقويمي الشخصي وليس الموضوعي، وهو يعكس خلفية الثقافة الغربية، ولكن من ناحية أخرى رأيت هذه العقوبات، تساعد البعض من الناس حتى لا يقعوا في الخطيئة، فالحقائق والوقائع التي يذكرها القرآن، والتي تقع خارج نطاق الإدراك والعقل البشري، مثل الآخرة والجنة والنار وغير ذلك، قد تبدو عرضةً للتساؤل خصوصاً إذا أخذت بحرفيتها.

وفي كل الأحوال فإن القرآن لا يشجع على الخوض في هذه القضايا في مواضع عديدة.

ففي مطلع سورة البقرة، تقول الآية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة]..

ـ إن استخدام الرموز والأمثال لتقريب بعض الأمور الغيبية، كالوصف الحسّي للجنّة التي تنتظر المؤمنين المخلصين في الآخرة، يصفها القرآن بالقول:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗاۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 25].

ـ هذا الوصف يناسب خاصة، تصورات العرب في القرن السابع، وقد ورد هذا النص في سورة البقرة التي هي تلخيصاً لموضوعات القرآن الكبرى.

ـ وفي سورة آل عمران يؤكد القرآنن أنه يستخدم باستمرار لغة رمزية ويحذّر أولئك الذين يأخذون المعنى الحرفي لنصوصه الرمزية ويلومهم فيقول:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: 7].

ـ وهناك أيضاً الكثير من الأمور الغيبية نحن لا نعلمهان وقد صرَّح القرآن أيضاً بها، وهي أن الكثير من الأحداث الواقعية الملموسة التي نراها بأعيننا، قد تحصل خلالها أمور غيبية لا نعلم بها ولا نراها، مثل: معركة بدر حيث انتصر المسلمون القلائل على أعدائهم الكثيرون الذين أضطهدوهم، فتقول الآية:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 9 ـ 10].

ـ وهناك آيات تُصرِّح بأوصاف تصويرية مخيفة خارج نطاق الخبرة البشرية، عن الحياة في جهنم والتهديدات بعقاب الكافرين والمجرمين فتقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: 113].

وهكذا فإننا نقرأ في سورة النور بعد الوصف الرائع لنور الله قوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: 35].

ـ إن استخدام القرآن للرموز والحكايات الرمزية تدحض أكثر الاعتراضات العقلية في شرح الوقائع والحقائق التي تقع خارج نطاق الخبرة البشرية، ولا داعي لأي مجادلات لاهوتية في هذا المجال.

هناك تأكيدات بأن الله على معرفة تامة بالأحداث التي ستحصل، وأن ما سيحصل هو مكتوب، وكأنه يقول أن الحياة على هذه الأرض، أشبه بكتاب والأيام التي نقضيها فيه هي صفحات هذا الكتاب، الذي نسهم فيه نحن في هذه الأحداث، ولكن لا يعني أن الله قد فرض هذه الأحداث، وتقول الآية: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: 8].

ـ وقد جرى جدال حاد بين المسلمين في القرون الأولى، ومنهم من فسَّر القضاء والقدر بأن أعمال الناس مقرّره من الله، ولكن الآخرون رفضوا هذا التفسير، ومن الواضح أنه تفسير خاطىء، لأن العقاب والثواب يكون لما يختاره الإنسان بنفسه من أعمال، والقرآن يؤكد بأن الذين يرفضون آيات الله ووحيه متعمدين هم المنافقون، فتقول الآية:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 182].

وفي سورة الأعراف، تقول الآية: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

ـ إن التناقض الظاهر بين القرآن والعقل، هو بسبب التفسير الحرفي المفرط لفهم الآيات، ولكن بما أن الله يتكلم غالباً عن حقائق ووقائع تتجاوز الخبرة البشرية فإن لغات البشر كلها بما فيها اللغة العربية مع كل غناها بالمفردات، فهي محدودة وقاصرة عن إيصال المعاني الحقيقية إلينا، وتظل هناك مسائل لا نستطيع بلوغها، وهذا هو مضمون الآية التالية: كما أعتقد:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: 27].

ـ السؤال الرابع من ملحد كندي، يقول:

لم أفكر أبداً بالإيمان بالله، ولم أشعر باي إحساس روحاني وقد وقعت مؤخراً في حب إمرأة مسلمة، وهي قد أحبتني وكانت تشعر بأن علاقتنا ستتعزَّز لو شاركتها بعقيدتها، لكني لا أريد اعتناق الإسلام إلا عن قناعة تامة، وقد قرأت كتاب (حتى الملائكة تسأل) وأقوم الآن بقراءة القرآن، ولديَّ بعض الأسئلة أود طرحها عليك ولكن دعني أبدأ بأمر مباشر، وهو وصايا القرآن، فقد وجدت أن بعض التشريعات والعقوبات قاسية جداً، وكنت أتساءل: هل هذه التشريعات كانت عقبة أمامك حين اعتنقت الإسلام؟

الجواب: لم تدخل وصايا القرآن في قراري اعتناق الإسلام بل الفضول هو الذي دفعني إلى قراءة القرآن، ولكن بعد ذلك تحوّل إلى التزام، لما يضيفه من معنى على الحياة البشرية وكنت أمرُّ مرَّ الكرام على الآيات التشريعية لأني كنت أظن أن لا علاقة لها بمسألة التوحيد ومعرفة الله، وأن هذه التشريعات قد وردت منذ زمن بعيد ولا علاقة لي بها، ولم أكن أعرف كيف يفسِّر المسلمون هذه

الوصايا ولا كيف يطبّقونها، ولم أكن أعرف كيف يرد عليها المعاصرون، وهذه الوصايا تشكل 3% من نص القرآن فقط.

يحتوي القرآن على أوامر يمكن اعتبارها شاملة وعالمية تتعلق بأمور كثيرة، كالإعتداء العسكري، والقتل، والسرقة، والغش، والربا، والخمر، والزنا.

وهناك أحكام تتعلق بشأن العبيد والجواري، ولم يعد لها وجود في المجتمعات.

كانت مهام القرآن الفورية هي إصلاح المجتمع العربي في القرن السابع الميلادي، وكان هذا المجتمع مشلولاً وآسناً بسبب انتشار الفوضى وانعدام أي نظام للحكم، وانتشار العنف والرذيلة والفساد، وكان بحاجة إلى تخليص الناس من العادات الجاهلية التي تضعفه وتدمره، وهذه الأحكام تصح لكل زمان.

والوصايا المجردة من أي قانون، كالوصايا العشر عند المسيحية، لا تؤدي إلى إصلاح سريع شامل، وأظن إنها لا تصلح حتى على المدى الطويل.

إن معظم القوانين القرآنية التي أجابت على مشاكل نوعية في بيئة ثقافية تاريخية خاصة، فإنها في غالبيتها مسائل جوهرية وأساسية تصلح للمجتمعات البشرية كافةً.

إن التوجيهات العديدة التي تتعلق بالمرأة، على سبيل المثال، تهدف كلها إلى تحسين وضعها في مجتمع معقد وقيود إجتماعية كانت تقيد المرأة وتحرمها من كل شيء.

لقد وفرَّ القرآن للمرأة مستوىً من الإستقلال المالي الذاتي وخصَّص لها حصَّة ثابتة من الإرث، وإن كانت هذه الحصة نصف ما خُصِّص للرجال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ...﴾.

كان الرجال يتحملون المسؤولية في الإنفاق على الأسرة، وتقول الآية: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ...﴾.

وأمر القرآن الرجال بتقديم المهر عند كتابة عقد الزواج ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً..﴾.

وكذلك كان للقرآن تعاليم تتعلَّق بمسألة الرِّق، فقد سعت الأحكام لإلغاء الرِّق تدريجياً حتى لا يصبح الأرقَّاء عالةً على المجتمع ومشرَّدين، كما هي اليوم الحماية للعمال من سوء الاستغلال وسوء المعاملة.

ـ وقد فرض القرآن ضريبة مالية سنوية (الزكاة) تستخدم لإعالة المحتاجين.

ويشجع القرآن على الزواج من الأرامل، من أجل إعالة أطفالهن إعالة مالية وعاطفية، ولذلك يسمح للرجل أن يتزوج أكثر من امرأة واحدة.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: 3].

ـ وفي القرآن نظام للحرب يُحرَّم فيه العدوان العسكري ولا يُسمح بالقتال إلا دفاعاً عن النفس وضد الإضطهاد:

فتقول الآية: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190].

وفيه كذلك تعليمات بشأن مشكلة المدمنين على الخمر والقمار، فقد حذَّر القرآن شرب الخمر وممارسة القمار (الميسر) وتقول الآية:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219].

ويدعو القرآن إلى إقامة قيادة للمجتمع بالتشاور، وهذه القوانين كلها كانت غريبة على العرب القدماء في تلك البيئة، وكانت هذه الأحكام تعالج الكثير من المشاكل الموجودة في ذلك المجتمع.

وعندما يقوم القرآن حكماً، فالغاية منه واضحة، مثل أن يأمر النساء بالحشمة والحياء، فتقول الآية:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ...﴾.

ويأمر الله المؤمنين أن يعدّوا ما يستطيعون من قوة لمقابلة العدو ومنعه من الإعتداء، فتقول الآية:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ...﴾ [الأنفال: 60].

فالغاية من ذلك هو إدخال الخوف على قلوب الأعداء وردعهم عن أي عدوان.

ـ أحكام القرآن لها مقاصد أساسية معينة ومبادىء قانونية ويمكن توسيعها وتكييفها مع التغييرات والتحولات التي تطرأ على المجتمعات ترتبط بالزمان والمكان، والتطور الذي يحدث للبشر.

بعد أن دخلت الإسلام اكتشفت أن علماء الشريعة الإسلامية يقرّون بهذا الرأي ولكن ما زالوا يتشددون في تطبيقها، وهذا التكفير السائد في التشدد أنا لا أشاركهم فيهن ولا أؤيده لأنه يُشوّه حقيقة الإسلام بشكل كبير، والذي يتعمق في دراسة القرآن يكتشف ذلك وأنا لا أقتنع بما يقوله البعض من أن العقوبات قاسية وأن هذا الزمن لا تتناسب معه هذه العقوبات، إنني ارى كما يرى غيري أن القرن العشرون كان أكثر القرون عنفاً، ولم يكن الأمان يعم الجميع فإن في الأحياء الفقيرة في المدن الأميركية يسود العنف، كما في أماكن أخرى كثيرة في العالم تواجه عنفاً متطرفاً وظلماً كبيراً بشكل دائم، وهو جزء من حياتهم اليومية.

صحيح أن القليل من العقوبات القرآنية لا تنسجم مع مشاعر الغربيين المرفهين، ولكنها ليست معياراً تقاس به إنسانية النظام الاجتماعي، وفكل مجتمع يستخدم عقوبات تناسبه ليردع الإجرام وليحمي الأبرياء.

وأعتقد أن النظام المثالي، هو ذلك الذي يحقق للبشرية أقل الآلام من

ضحايا العنف والجريمة، ولو أن هناك نظاماً يلغي العنف والجريمة ويحقق العدل، فسيكون أفضل قانون، ولكن بما أنه لا يوجد هذا النظام، فأنا أعتقد أن شرائع القرآن وروحه هي أكثر إنسانية من غيره عندما تخضع لتفسير صحيح يراعي الظروف والبيئة والمحاكمات العادلة.

الغاية من الخلق

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

إن البدء بهذه الآيات يشكل أسلوب ساحر وفاتن لأنه يبين أن البشر مخلوقات فائقة الذكاء، وهذه الآيات تشير إلى الغاية من خلق مخلوقات من نساء ورجال، هي في الأساس مخلوقات تملك حسّاً عميقاً بالخطأ والصواب وأن لها ضمير يحاسبها ولكنها معرَّضة للإغراءات الشريرة والخيّرة، وأن عليها أن تختار بين الخير والشر، وهذا الشعور الفطري يتميز به الإنسان وأن من النقاط المهمة التي تبرزها قصة الخلق هي أن البشر سيعانون في الأرض وهذه المعاناة ليست عقوبة للبشرية، ولكنها خطَّة إلهية ليمرَّ الإنسان في اختبارات وتجارب يكون فيها دور للعقل والضمير والإرادة والاختيار، والخطأ والندم والمعاناة، وهداية الله والتوبة، ونتائج رهيبة لمن يرفض الهداية الإلهية التي تكون عوناً للإنسان على الصمود في وجه الإغراءات الشريرة، فيتحول قسم من الناس إلى أشرار، ويحصل صراع بين أهل الخير وأهل الشر ويصبح الناس بعضهم لبعض عدو.

لقد قرأت القصة كثيراً، وأطلقت العنان لخيالي وربما أني قد أسقطت معاناتي في طفولتي على الحكاية، ولكن لم يمض وقت طويل حتى وجدت ما يؤكد افتراضاتي وقد اكتشفت وأنا أشقُّ طريقي في القرآن أن خطَّة الله هي أن يمر الإنسان في هذه المعاناة والتجارب، وعندما تجتمع هذه العناصر كلها تخدم الغاية النهائية التي لا يمكن للإنسان أن يبلغها بكفاءة أكثر إلا إذا مرَّ بها.

البشر ليسوا ملائكة:

عندما احتجَّ الملائكة على خلق البشر، فإن أول ما أشار الله إليه، هو مستوى الذكاء عند البشر، وأن الملائكة ليس لديهم القابلية للتعلم أكثر مما تعلَّموه، ويوضح القرآن من البداية أن الله لا يريد للبشر أن يكونوا ملائكة، وأن البشر بكل ما فيهم من أخطاء وتعقيدات وتناقضات فهم لديهم القدرة أن يكونوا أعظم من الملائكة، وأن الذكاء البشري يلعب دوراً جوهرياً في ذلك.

دور العقل:

إن للعقل دور جوهري في الإيمان، فالذين يرفضون تعاليم الله وآياته ويفسدون في الأرض، يصفهم القرآن بأنهم جاهلون لا يستعملون عقولهم، والقرآن يسألهم في آيات كثيرة: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ومن هذه الآيات: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ البقرة. وفي آية أخرى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 242].

وفي القرآن آيات كثيرة تبين أن لعقل والإيمان حليفين، فالذين يتبعون القرآن هم العقلاء، ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ والراسخون في العلم، والذين يعارضون الوحي هم المغرورون وهم في ضلال مبين، وهم سفهاء لا يفقهون ويتبعون الظن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 176].

وفي آية أخرى:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: 3].

وفي سورة الزمر يقول القرآن:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: 22].

والذين يتبعون الظن، تقول الآية عنهم في سورة يونس:

﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾.

وفي سورة يونس تقول الآية:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس: 36].

جرى حوار بيني وبين أمي مرات عديدة عندما كنت ملحداً كانت تقول لي: إن الرب لطيف يا بني، وكنت أقول لها: لماذا إذن يسمح لهذه المعاناة الكبيرة والعنف الشديد على الأرض؟

وكانت تجيب: بأن هناك أشياء لا تستطيع عقولنا المحدوده إدراكها، فأقول ساخطاً: لقد سمعت ذلك مرات عديدة.

فتقول: كل امرىء له شكوكه في وقت ما، فأنا كان لديَّ شكوك وأنا في عمرك.

أجبتها: لماذا بقيتِ على الإيمان؟

فردّت أمي قائلة: «الإيمان هبة من الله يا جيف، فعندما تؤمن تتبدَّد الشكوك كلها».

فقلت: إذن لماذا لا يمنح الله هذه الهبة للناس أجمعين؟

لماذا لا يهبني إياها؟

فقالت: حاول أن تكون مؤمناً يا ولدي، ولا تقلق وسوف تجد الله يوماً ما.

ـ يمتحن القرآن القارىء دوماً على طريقة سقراط، إذا يطرح افتراضاته للمناقشة ويسأله مراراً وتكراراً:

أرءيتكم إن...

فيقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: 40].

ـ أم حسبتم...

فيقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ...﴾.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115].

ـ أفلا يتدبرون...

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: 24].

ـ الرسالة واضحة تماماً، لكي نكون مؤمنين حقيقيين صادقين، لا بد أن نتحرر من كل التصورات والعادات الموروثة، وأن نفحص معتقداتنا عن طريق عقولنا، لأن التعلم يلعب دوراً جوهرياً في التطور البشري الروحي.

القرآن يحث على العلم فيقول: ﴿ٱقْرَأْ﴾ والذي علَّم ﴿بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 4 ـ 5].

القرآن يعلّم الإنسان بطريقة رائعة دون أن نشعر.

ـ صوَّر القرآن بأن الحياة على الأرض هي مرحلة تعليمية من مراحل خلق الإنسان، وليس غريباً أن يصوِّر يوم القيامة بأنها نهاية المرحلة الدراسية في آخر فصل جامعي، ويصنِّف المتخرجون إلى ثلاث فئات، فيقول: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ...﴾ [الواقعة: 7 ـ 12].

الفئة الأولى هم السابقون المميزون الذين يفوزون بفضل طاعتهم للبرنامج الإلهي والعمل به، فهم سيكونون الأقرب إلى الله، ثم أصحاب الميمنة هم الذين

عملوا الصالحات في ما يؤهلهم لدخول الجنَّة ولكنهم لم يبلغوا مستوى الامتياز والفوز الذي سلكه السابقون، وأخيراً أصحاب المشأمة هم الذين أخفقوا في الامتحان الدنيوي وسوف يعانون في الآخرة.

وسوف يُعرض سجل الأعمال يوم القيامة فلايترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسيصاب المذنبون في تلك اللحظة بالهلع عندما يدركون مصيرهم. فتقول الآية:

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].

وتكون وجوه الذين خابوا في الحياة الدنيا:

﴿خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ ووجوه الذين افلحوا ونجحوا في الامتحان الإلهي، ستكون:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً...﴾ [الغاشية: 11].

وسوف يؤتى الفائز كتابه بيمينه ويقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ أما الخاسر سوف يؤتى كتابه بشماله أو وراء ظهره ويقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ...﴾ [الحاقة: 25 ـ 27].

ـ يستخدم القرآن وسائل أخرى تشجع مقاربة الإيمان مقاربة عقلية ومنطقية، وهي القصص القرآنية التي تشتمل على كثير من المواجهات بين الأنبياء وأقوامهم الكفار والظالمين، ويبين كيف ينتصر المنطق والحق الذي يتميز به المؤمن.

ففي قصة إبراهيم عندما قال للطاغية: إن ربه يحيي ويميت، فقال له الطاغية: إنه هو الآخر يحيي ويميت، فزجّه إبراهيم في زاوية حرجة وقال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: 258].

وعندما اتهموا إبراهيم بأنه حطم الآلهة من الأصنام، وهو كان قد حطمها فعلاً، فأجابهم بأن كبير الآلهة من الأصنام قد حطمها، فأدركوا على الفور أن آلهتهم التي صنعوها بأيديهم أنها مدعاة للسخرية، وتقول الآية: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: 62 ـ 65].

ـ قال لهم إبراهيم أتعبدون إلهاً لا ينطق: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 67].

ـ وفي حكاية موسى والخضر عندما اراد موسى أن يتعلم من الخضر، وحدثت أمور غير منطقية قام بها الخضر، كثقب السفينة لمساكين في البحر، وقتل الولد الذي كان أبويه مؤمنين، وأنه لو كبر كان سيرهق والديه بكفره وفساده... إلى آخر القصة.

يبين لنا القرآن أن غالبية البشر يسارعون في استنتاجات مغلوطة مبينة على أدلَّة غير كافية، ولا يعرفون الحكمة الإلهية التي لا تظهر لهم.

المسألة التي يريد القرآن إبرازها هي أن كل شيء من عند الله، حتى مقدرة الإنسان في فعل الشر، ولكن ما دام الله قد وهبنا مقدرة الاختيار فلماذا لا نختار القيام بعمل الخير، فنكسب المنافع الناجمة عن ذلك الخير، وعندما نختار الشر فإننا نؤذي أنفسنا وندمرها بأيدينا.

ظهور الإسلام في الجزيرة العربية

كانت شبه الجزيرة العربية في الوقت الذي ظهر فيها الإسلام بلاد متخلفة صحراوية لا يوجد فيها أي نوع من العلوم، وكان العرب أميين فقراء قساة، قبائل متصارعة من أجل الماء والعشب، ويتفق المؤرخون على أن العرب كانوا بدائيين ليس لديهم أي ميراث فني أو أدبي أو أي علم يستحق الذكر، وليس لهم كتاب سماوي، أو كتابات مقدَّسة، ولكنهم كانوا يتداولون الشعر شفوياً.

في مثل هذه البيئة جاء محمد الأمي بالآيات القرآنية الجميلة والموجزة التي تمتلىء بالحكمة وبمضامين فكرية، وأسلوب راقٍ، وتعاليم فيها كل الإنسجام العقلي والمنطقي والأخلاقي المميّز. وتقول إحدى الآيات: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا...﴾ [الإسراء: 88].

ويُعدّ هذا القرآن أصفى وأنقى شهادة على توحيد الله، وجاء بتعاليم رحيمة عميقة تنهض بالبشرية إلى الرقي والمحبة وترشد الناس إلى الحياة التي تتسم بالأخلاق السامية والورعة. ويبدو أن النبي كان شخصاً عبقرياً ويُعدّ من أعظم وألمع شخصية عبقرية خلال التاريخ، وهو موهوب بصورة فائقة. ومع هذا التميز الكبير فإن القرآن يؤكد على أن محمد هو واحد كغيره من البشر وأن دوره هو إيصال الرسالة السماوية، ولا يستطيع أن يقوم بالمعجزات إلا إذا أذِن الله له، وهو لا يتمتع بقوى خارقة، وينتقده القرآن ويقوِّمه في بعض المناسبات، ومع أن محمد كان من الأشخاص العظماء النادرين في عبقريته وتفوقه ولكنه كان متواضعاً أشد التواضع وناكراً للذات.

خيار صعب

أذكر ذات يوم وكنت في السنة الخامسة ابتدائي، وفي أثناء درس الديانة، كنت أتلو عبارة تقول: « العقيدة الكاثوليكية هي الدين الصحيح الوحيد» فرفعت يدي وقلت للمعلمة: ألا يقول كل معلم ديانة من الديانات بأنه هو الدين الصحيح؟

حملقت الأخت برناديت، ثم قالت بحذر: سوف أسأل الأب «هانوفر» عن ذلك وأعود إليك، ولم تعد أبداً وقد نسيت الموضوع، وأنا لم أطرح السؤال ثانية، ولكنه ظلَّ يؤرقني.

إن تفوق البشر بالذكاء على الملائكة يجعلهم قادرين على الاختيار في تقرير مصيرهم الأخروي بناءً على ذكائهم واستعمال عقولهم بشكل صحيح وسديد.

ويقول القرآن: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256].

يؤكد القرآن ضرورة أن يكون الإيمان طوعياً معتمداً على الإرادة والعقل لأنه على الإنسان أن يختار ويميز بين الغيّ والرشد.

ويؤكد القرآن أن الله قادر أن يجعل الناس أمَّةً واحدة ويجعلهم مؤمنين جميعاً: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة: 48].

وفي سورة يونس يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99].

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: 13].

يبدو من هذه الآيات أن على الناس أن يكونوا أحراراً تماماً في اختيار دينهم، ولكن الله يساعد المؤمنين ويزيدهم هداية، ويترك الكافرين لما يختارون، وقد يحاسبهم في الدنيا أو في الآخرة، ولكنه يُعرِّض الجميع للامتحان، ويدير هذه الدراما البشرية، فالذكي هو الذي يختار في كل موقف أو حدث دنيوي الأفضل لآخرته، ولنموه الروحي في الدنيا، وهكذا فإن الحضور الإلهي هو الذي يهيمن والناس ليسوا مستقلين تماماً وبشكل مطلق، والتدخل الإلهي موجود وحاضر دائماً.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

إن وهم الاستقلال الذاتي، يعزز ويقوي مقدرتنا على الاختيار والتعلم من تجارب الحياة، وتتيح لنا فرصة تطبيق ما نتعلمه بصورة مستقلة، فلنتعلم سواء كنا داخل الصف أو خارجه.

إن إدراكنا بالاستقلال الذاتي يجعلنا نشعر بأن نتائج الامتحان والاختبار واللقاء مع الله بعيدة جداً زماناً ومكاناً، ولكن الله يخبرنا أن إدراكنا للزمن ليس حقيقياً وسوف ندرك عندما ندخل في الحياة الآخرة: وتقول الآية: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: 46].

وفي آية أخرى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: 45].

فالزمن الذي ندركه إذن هو وهم آخر من أوهام هذه الحياة الدنيا، فما يعدُّ بطيئاً وسيراً تاريخياً طويلاً هو في الحقيقة، ليس إلا ومضة في عين الله ويقول:

﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل: 77].

ـ مع كل صفحة من القرآن أقرؤ ها، تتعزّز لديَّ صورة الحياة بأنها اختبار وامتحان، كأي مسألة رياضية، وهذا الاختبار يحث البشر على النمو الأخلاقي والفكري والروحي.

وكما أن المعلم يغادر الصف ليراقب الطلبة من مرآة خلفية ذات اتجاه واحد، كذلك فإن الله خلق لنا وهم الإنفصال عنه ليغذي نمونا الشخصي ويرعاه، وهو يراقبنا، ووضعنا في بيئة معادية لنا وسلَّحنا بالعقل، وعزّز العقل بالوحي لكي نقرّر مصيرنا بأيدينا.

ويقول: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: 99].

الله شاء أن يؤمن الناس بمحض إرادتهم، ولكنه يرعى هذا الاختيار ويتلقاه بمحبة، ويجيب عن بعض الأمور بطرق واضحة أو خفية بارعة.

أما الذين يرفضون ذلك الخيار عناداً وتكبراً، وبطريقة غير عقلانية، فإن الله سيتركهم يعمهون بكفرهم.

ـ شعرت وأنا أقرأ القرآن كأن الحقائق تَظهَر أمامي على شاشة تلفاز، تصفو الصورة تارة وتتشوش أخرى، وأظن أحياناً أني على وشك أن أرى الصورة الكبيرة، وأرى أن معاناة البشر ليست سوى مسرحية، فما هو دورنا الذي يجب أن نقوم به في هذه الملهاة التراجيدية؟

لماذا يعاني الإنسان من الآلام:

تطرح المعاناة الإنسانية دائماً معضلة للفكر الديني، والكثير من البشر يسألون أسئلة عقلية وفلسفية:

لماذا يسمح الله بالآلام والكوارث تحل بهم؟

وكل الأسئلة والأجوبة تسلّم بأن المعاناة البشرية هي مؤذية وضارة للإنسان

وغير مرغوب فيها، وهي تجعله يشعر بأنه ضحيَّة، وهذه الأسئلة تعكس المنظور البشري، ولكن للقرآن منظور آخر وحكم مختلف تماماً في معاناة البشر على الأرض، إذ يقول أن هذه المعاناة هي عنصر ضروري وجوهري لتكامل الروح والنفس البشرية، وأن على الناس جميعاً أخياراً وأشراراً، خاطئين وأتقياء، مؤمنين وغير مؤمنين، أن يجرِّبوا هذه المعاناة، فيقول القرآن:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: 155 ـ 156].

ـ إن تجربتي كواحد من هؤلاء البشر تذكرني بالآلام التي عانيتها عندما كنت طفلاً ثم شاباً، وعندما مَرِضت أمي وانهارت، وكانت قضية اعتناقي الإسلام قد زادت من معاناتها، كنت أراها تذوي شيئاً فشيئاً، بعد أن تحمَّلت والدي هذا العمر كله، ولكن بالرغم من انهيارها وصراعها ضد الذهان، كنت أرى ملامح القوى الروحية ما زالت متوطنة فيها.

وقبل أن ترحل من الدنيا، قالت لي في لحظة وضوح ذهني وصفاء عاطفي: «أنا لست خائفة من الموت، هل أنت خائف يا جيف، فأجبتها قائلاً: الموت لا يخيفني، ولكني قلق على أفراد أسرتي، ومع ذلك أعلم أن الله سيرعاهم، فقالت: أفهم ذلك، ولكن أسرتي لم تعد بحاجة إليّ، وأنا جاهزة للرحيل». فأدركت عندئذ أن هذه المرة الأخيرة التي ربما أراها فيها فقلت لها: سأفتقدك جداً يا أمي وكنت أحاول منع دموعي من التساقط، فأجابتني: اعرف ذلك يا بني، ولكن لا بأس ستكون الأمور على ما يرام، ورأيت في وجهها تلك اللحظة قوَّة هائلة وسلاماً عظيماً مما كنت ألِفتُ رؤيته فيها جيداً.

ـ إذن لا بد لكل إنسان أن يعاني ألماً أو خسارة أو صعوبة أو كارثة خلال وجوده على هذه الأراض، ولكن القرآن يقول: ﴿وبشر الصابرين﴾ أي أن بإمكاننا إذا صبرنا وسلَّمنا لمشيئة الله أن نحصل على فوائد كثيرة، وهذا الصبر مرتبط أيضاً بالحياة الآخرة ارتباطاً وثيقاً، فيقول القرآن:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214]. توضح هذه الآية أن المؤمنين وهم عادة يكونون قلّة ويتعرضون للاعتداء والظلم، قد يصابون بالكرب الشديد ويوشك أن يتزلزل إيمانهم فيصرخون قائلين: متى الفرج، ومتى النصر؟ وقد يتساءلون لماذا هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر والتي لا استقرار فيها، وهي معرَّضة للعطب في أية لحظة.

القرآن يجيب ويؤكد أن المعاناة للبشر على هذه الأرض تقربنا من الله أكثر، وهي عنصر هام في ارتقاءنا وتطورنا. وتقول الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6].

وفي آية أخرى من سورة البلد، تقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ أي في تعب شديد ومكابدة ومعاناة.

وتكمل الآيات في سورة البلد، تبين أن على الإنسان أن يقتحم العقبات في حياته ويتخلى عن أنانيته فيطعم المساكين ويعطي المحتاجين وأن يصبر على الشدائد والصعوبات وأن هذا الكدح في العمل الصالح له نتائج أخلاقية وتربوية وروحية للإنسان نفسه، وإذا لم يكدح هذا الإنسان من أجل التقرب من ربه، فهو سيكدح من أجل مصلحته الذاتية، ويؤدي ذلك إلى الكفر والإلحاد والضياع في متاهات الحياة الدنيا، فلا يقرب من الله ويخسر كل شيء.

ـ إن وصف القرآن بأن الحياة الدنيا هي لهو ولعب وهي خادعة ويظن البعض أنها هدف بحد ذاتها، ولكن عندما يدخلون الحياة الآخرة يسألون عن المدَّة التي أقاموا فيها على هذه الأرض، فهم لا يتذكرون إلا صوراً خافته مبهمة وبعيدة، وكأنهم قد صحوا من نومهم فهي كالحلم.

وعندما يستيقظ الموتى جميعاً، فإن الكافرون يصعقون عندما يرون الحقيقة بكل وضوح، فتقول الآية:

﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 22].

ويشبّه الله الانبعاث من الموت كالاستيقاظ من النوم، فعندما يستيقظ البشر تبدو لهم الحياة الدنيا وكل الآلام والكروب التي مرَّت بهم كأنها حلم وكابوس وأن الحياة في الأرض هي أشبه بالخيال والأوهام وليست حقيقة واقعة، عند ذلك تعرف الغاية الكبرى من هذه الحياة في الدنيا، وأنها مرحلة قصيرة ومحدودة، للتعلم والعمل من أجل حياة أخرى ومرحلة جديدة هي الأخيرة من حياة الإنسان، وهي خالدة وأبديّة.

وتقول الآية في سورة المؤمنون: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.

ـ إن الحياة المخصّصة لمساعدة الآخرين صعبة ولكنها مجزية، والسعي للمصلحة الذاتية أكثر سهولة ولكنه لا يؤدي إلى رضا النفس واطمئنانها الحقيقي ولا إلى الارتقاء والتقرب إلى الله.

ـ لقد تبيَّن لي أن القرآن يسهّل لي الأمور أكثر مما كنت أظن، وكأنه يذكرني بأشياء كانت موجوده في نفسي ولكنها غائبة عن ذهني، كما لو أنني أبحث في أي مسألة رياضية معقدة وقد وجدت لها الحل.

حب الله للمتقين والصالحين

يتحدث القرآن في آيات كثيرة عن حب الله للمؤمنين المتقين، والشاكرين، والعافين عن الناس، وعن المتظهرين من الذنوب، وعن المتوكلين، والمقسطين والعادلين والذين يقاتلون في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص، وأن هذا الحب متبادل بين الله وعباده المؤمنين.

وفي المقابل فإن الطغاة، والكفار، والمعتدين، والظالمين، والمتكبرين، والمبذرين، يرفضون تعاليم الله وينسونه ولا يذكرونه ويلحدون في أسمائه وصفاته،

ولا يشكرون النعم الكثيرة التي وهبها لجميع خلقه. وتقول الآية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: 89].

وفي آية أخرى تقول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل: 73].

وبما أن الغاية الأساسية من وجودنا هي أن نحب الله وأن يحبنا الله، فإننا لا يمكن أن نقيم هذه العلاقة الحميمة ونحن ننكر وجوده، ولكن حتى لو لم نتعرف على الله فإن أعمالنا الصالحة ترضيه وأعمالنا السيئة تغضبه في القرآن هناك قانون ذهبي يقول: «عامل الناس كما تحب أن يعاملوك الآخرون ويطلب القرآن من الناس أن يكونوا رحماء وخاصة مع الوالدين، وذوي القربى، وأن يقولوا للناس حُسناً، وأن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة.

وأن يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم من أجل الضعفاء والمتهورين وإقامة العدل.

كيف نعرف الله؟

لو كان الله واحد منا لهانت الأمور لأننا كائنات من نوع واحد، فأما الله فليس كأحدنا، والقرآن يُعرِّفنا عن الله ويقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: 1 ـ 4].

ويقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11].

فكيف بالكائنات البشرية المخلوقة المحدودة والمقيَّدة بالزمان والمكان، أن تعرف ما هو خالد وغير محدود وغير عادي ومستقل تماماً، وهو القوي العظيم الحكيم خالق كل شيء، وأوصافه لا تعد ولا تحصى.

ـ والعجب إننا نحن البشر المخلوقين نجعل من أنفسنا آلهة، ونجعل من الله إنساناً نريد أن نعرفه، فإن ردم هذه الهوَّة اللامحدودة بيننا وبين الله مستحيلة، فنحن حتى الآن لم نتعرَّف على الشخصية الإنسانية بشكل كامل، ولا حتى لا

نعرف أنفسنا، بعد ذلك أدركت أن لا أمل لي في سلوك هذه الطريق الطويل لأعرف الله (كذات).

ـ لقد مرَّت عليَّ أوقات وأنا أقرأ القرآن، كنت أشعر بأن هذه الآيات والكلمات التي أقرؤها وأسمعها تغمرني بمشاعر الحب، وكأن الله يكلمني من خلال هذا الكتاب بحيث أن دموعي كانت تنهمر في مناسبات عديدة، وأشعر أني في حضرة قوة هائلة ورحمة غامرة، وأن هذه اللحظات الروحية تأخذني بعيداً عن الواقع الذي أعيشه فأنسى كل شيء، وقد مرَّت عليَّ لحظات تيقَّنت فيها من وجود الله، وأنه آن الأوان كي أتوقف عن تعذيب نفسي بشأن التساؤل عن وجوده، لأنني شعرت بوجود الله وبلقاءٍ روحي معه.

صفات الله

بعد أن قرأت ـ القرآن، أخذت أفكر فيه، وقد أخذ حيزاً من تفكيري في معظم الأوقات، حتى وأنا أشاهد مباراة كرة القدم على التلفاز، وكنت أغوص في هذا العالم الذي تعرفت عليه.

وبعد القراءات المتكررة، وجدت بأن القرآن يخبرنا عن نفسه بآيات كثيرة، ولكن علينا أن نقرأ بتروٍّ وعناية، عند ذلك نجد أن صفات الله تتجلى كأنها بيانات تصفه. مثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 23].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: 5]، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

ويشير القرآن إلى هذه الصفات بالأسماء الحسنى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180].

وآيات كثيرة تتكلم عن صفات الله وأسمائه، كنت أمرّ وأقفز من هذه الآيات، وكأنها فواصل بين الموضوعات، فلا أوليها ا هتماماً، أما الآن فإني أرى الرابطة والعلاقة التي كنت أبحث عنها، فقد وجدتها لأتصل بالله وأتقرب إليه، وهذه الرابطة هي مجموعة من الفضائل التي يحتاجها كل الناس رجالاً

ونساءً، لكي يتطوروا ويرتقوا ويتكاملوا، ويكون لهم بعض صفات الله، ولأن الله هو كمال الفضائل فإننا كلما نمونا فيها ازدادت قدرتنا على معرفة الله والإحساس به، وكلما ازددنا رحمة، إزددنا تقرباً من الله الرحمن الرحيم، وهكذا بالنسبة للرأفة والغفران والعفو والحب... والصفات الإلهية التي لا تعد ولا تحصى وبما أن الله هو النبع المتعالي للخير كله، فإننا نتوجه إليه عن طريق الخير الذي زرعه فينا.

يخبرنا الله أنه نفخ من روحه في النفس البشرية وتقول الآية: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: 9].

وهذا يدل على أن كل إنسان يأتي إلى هذه الدنيا فهو يحمل في ذاته بذرة من صفات الله، ويعود الأمر إلينا في رعاية هذه النبة وتغذيتها لتنمو وتعود وتتصل بأصلها وخالقها.

ـ أخذت قطع اللوحة تتجمع بالصورة الكاملة، ففي كل مرّة نبدي لطفاً للآخرين، فإننا نشعر باللطف الإلهي يغمرنا، وكلما صفحنا عن الآخرين نشعر بغفران الله الغفور الرحيم، وفي كل مرَّة نساعد فيها المظلومين والمحتاجين، نشعر بالرعاية التي يقدمها لنا الله، وبفضل هذه الطرق نتقرب إلى الله، فتنساب صفات الله لتغمرنا مع الآخرين، ونصبح مساهمين في عطاء الله الذي يصل إلى الآخر، وننمي علاقتنا بالله من خلال هذه الصفات فتصبح هذه العلاقة حميمة، لا يمكن لأي علاقة بين البشر أن تصل إليها.

إن عمل الخير بشكل مستمر هو الذي يغذي الإيمان والتدريب الروحي كالصلاة والصيام والزكاة والحج والتأمل والتفكير بآيات الله التي تحيط بنا، في الطبيعة وفي أنفسنا، كل ذلك يساعد على معرفة الله أكثر والتقرب منه، فتراه قلوبنا وأرواحنا.

ـ إن الشعائر الدينية عنصر هام في برنامج التنمية البشرية الروحية، والشعائر هي غير العبادة، لأن العبادة هي كل عمل يقوم به الإنسان فيه مصلحة للبشر وفيه

رضا الله هو عبادة، ولكن الشعائر تساعدنا على تنقية أرواحنا وتزودنا بوسيلة مباشرة للاتصال بالله ولإيصال حبنا له، فنخاطبه وندعوه ونتقرب إليه بهذه الشعائر، فكل علاقة لا يكون الطرفين مساهمين بها لا يمكن أن تنمو، وقد علَّمنا الله عن طرق التواصل معه وشكره، وقد أوضح لنا، أنه غني عن العالمين، ولكنه يجب القصد الكامن وراء هذه الشعائر، كما أن الوالدين لا يحتاجان إلى الهدية، ولكن يحبان القصد والدافع لتقديم الهدية وهو الحب والتقرب هو ما يسعدهم ويرضيهم.

ـ إن للقرآن رؤية شاملة للحياة، ولكي يكون الإنسان خليفة لله في الأرض، فهي مهمة ثقيلة وخطيرة وتتطلب قدرة عالية من التواضع والتضحية والصبر، وبذل أقصى الجهد ليصبح المرء ممثلاً لله يوصل ما يوحي به من الخير للآخرين. وتقول الآية:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72].

ـ ولكن هل نحن مزودين بالكفاءة الملائمة للقيام بهذه المهمة، والجواب: نعم، لقد زوَّدنا الله بفطرة سليمة تجعلنا نميز الخطأ من الصواب، وأعطانا العقل والذكاء لنحكم على الأمور إن كانت خيراً أو شراً، ثم أرسل من الأنبياء بالوحي والهداية، لتصف لنا السلوك التقي والسلوك الشرير ولتضيء لنا الطريق.

ـ وهذه العناصر كلها قدَّمها القرآن في قصة آدم ولذلك أمر الله الملائكة أن تسجد وتخضع لآدم ولأبنائه المخلصين من بعده.

التجربة والممارسة للخير والشر

نشأت في بيئة فاسدة، وكل ما عرفته كان غير شرعي ولكني لم أتعاطى المخدرات ولا المشروبات الروحية، لأني رأيت الإدمان كيف كان يدمِّر والدي وإخوتي الأربعة وعمّي وكثيراً من أصدقائي، لم أتورط في علاقة جنسية مع قاصر رغم توافر الفرص، وكنت أتحاشى قدر الإمكان المشاحنات والغوغاء، لأنني

كنت أخاف أن أقضي حياتي في إصلاحية الولاية، ولكني لم أكن محصَّناً بما فيه الكفاية.

لقد اقترفت أول سرقة في حياتي عندما كنت في الحادية عشرة، ولقد مرَّت بدون عقبات، ولكن كان قلبي حينها يخفق بقوة، وقد فرح رفاقي عندما أخبرتهم، ولكن نشوتي وحماسي تلاشيا لحظة دخولي للبيت لأن مجرد رؤية أمي أشعرتني بالذنب، وبأني أسأت لها، لأنها كانت نموذجاً للأمانة وكانت تثق بي، تمنيت لو أستطيع إعادة علبتي العلكة ولكني كنت قد تصرفت بهما، وفكرت بأن أشتري علبتين وأعيدهما إلى السوبر ماركت ولكني لم أفعل، ثم بعدها سرقت بعض الأشياء الصغيرة التي لا يزيد ثمنها عن عشرة دولارات.

وعندما بلغت الواحدة والعشرين من عمري دعوت صديقتي إلى وجبة بيتزا، وقد احتلت على البائع ولم أدفع ثمنها. لم يحدث بعدها أن قمت بأي عمل سرقة لأن وضعي المالي قد تحسَّن وابتعدت عن البيئة والمنطقة التي كنت أعيش فيها.

إن الأذى الذي يصيب فاعلي الشري يُعد أذى جوهرياً لأن الشرور تعيق النمو الروحي، فتتئآكل الحالة الروحانية وتضمحل ويفقد الإنسان الهدوء والسكينة، فهو ينمي في نفسه الصفات التي تتناقض مع صفات الله، فيسيطر الشر على الإنسان ويتعوّد عليه، ويبتعد عن الله، ويصبح هو الشر بذاته، وعند ذلك تكون الخسارة العظيمة ﴿ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

ويذهب الإنسان إلى الآخرة مجرَّداً من روحه ويأخذ معه شروره فقط.

وتقول الآية: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [الزمر: 41].

أما المؤمنون المطهرون من الذنوب فهم يعيشون في نور الله في الحياة الدنيا، وفي يوم البعث تضيء لهم الأنوار الإلهية: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: 12].

وما من عمل أخلاقي أو معنوي صغيراً كان أو كبيراً إلا وتظهر نتائجه في

الآخـــرة: ﴿فَمَن يَعْـمَلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَـرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْـمَلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ شَـرًّا يَـرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 7 ـ 8].

ويؤكد القرآن أننا سوف نمتحن في الحياة، كل حسب قدراته والمواهب التي أعطاها الله له، بما في ذلك المعرفة والثروة والبيئة والمكانة الاجتماعية، ولا تكلف نفس إلا وسعها. وتقول الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: 165].

وفـــي آيـــة أخـــرى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ [البقرة: 286].

فالمرأة التي سقت كلباً كاد أن يموت عطشاً، وهي لا تؤذي أحداً من الناسن ولكنها لا تعرف واجباتها الدينية، فهي ستفوز في الجنة، وأما الإنسان العارف حتى لو كان نبياً أو زوجة نبي فسيكون عقابه مضاعفاً: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 30].

لذلك سيكون جزاءنا في الآخرة، بمقدار ما نحرزه في الدنيا من عمل يتناسب مع قدراتنا ومقدار النعم التي خصَّنا بها الله.

ويصوّر القرآن أعمال الإنسان وحالهُ في الآخرة برمزية جميلة، فيقول: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24].

وإن العمى الروحي في هذه الدنيا، سيكون عماً وضلالاً في الآخرة، فتقول الآية: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 72].

توحي هذه الأوصاف بأننا عندما ندخل الحياة الآخرة، فإن الأعمال تتجسد في حالتنا الروحية التي وصلنا إليها، ونخرج من رحم هذه الدنيا مشوهين، كما يخرج أحياناً الطفل مشوه من رحم أمه لأسباب يعلمها الله، فإن الشر عندما يسيطر على الإنسان فإن روحه تصبح مشوهة، وقد تكون أشبه ببعض الحيوانات.

ـ إذن الإثم هو مدمِّر للذات، وعندما يصبح الإنسان قاسياً وظالماً وبعيداً عن الله يكون قد ظلم نفسه ظلماً كبيراً: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة: 57].

ـ لا يطلب القرآن الكمال من الإنسان، ويعتبر أن هذه الحياة الدنيا هي مرحلة من مراحل النمو والتطور المادي والروحي، وانه لا بد من ارتكاب الأخطاء لأن التجربة والخطأ يؤديان دوراً مهماً في تطورنا، فعندما تكون نتائج الأخطاء مضرَّة فإن الأذى يصيب أرواحنا، فنتوب ونندم ولا نكرر الأخطاء، فتصبح الأخطاء دروس مفيدة لنا: وتقول الآية:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

ولكن على المخطىء أن لا يؤجل توبتهن حتى لا تتراكم الأخطاء فتحول حياة الإنسان إلى جحيم بسبب اثرها على الروح والنفس، وتقول الآية:

﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: 18].

إن تجربة الخطأ تحذرنا بعدم العودة لأننا لمسنا ضررها وسببت لنا الاضطراب الداخلي، لذلك فإن التجربة والخطأ تجعلنا نتطور فكرياً وروحياً، ولكن تجاهل هذه الأخطاء والمضي فيها تجعل أرواحنا تصاب بالقسوة والجمود المخزي، ولذلك القرآن يدعونا إلى التوبة باستمرار ويقول:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

والله لا يترك التائب يكافح وحده، بل يعينه ويساعده ويعفو عنه ويغفر له، ويذكّر القرآن باستمرار أن الله يتوب على المذنب التائب المنسحق الفؤاد بسب الشعور بالإثم، فيحيطه برحمته ولطفه،كما يفعل الأبوان مع أطفالهم عندما يصيبهم الأذى بسبب أخطائهم.

ولكن ليست الأخطاء كلها بوزن واحد، فإن لبعضها ضرر أكثر من بعضها الآخر فيقول القرآن:

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: 31].

إن ارتكاب الأخطاء الكبيرة بحاجة إلى التوبة أكثر ويجيب على الإنسان إن لا ييأس من رحمة الله وغفرانه مهما كانت هذه الأخطاء كبيرة، حتى لا تتحول نفسه بالتوجه إلى الشر وارتكاب المعاصي المتكررة فتقول الآية: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [النور: 53].

ـ ولكن هناك خطأ كبير لا يمكن أن يغفره الله أو يقبله، وهو عندما نجعل من أنفسنا آلهة ونجعل له شريك، ونرفض التخلي عن الآلهة المزيفة لأننا نكون قد وضعنا أنفسنا في معارضة مباشرة مع الله الذي خلقنا، فيقول القرآن:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48].

ويؤكد القرآن أن قلوب هؤلاء المشركين تصبح مظلمة محجوبة صدئة قاسية، لا يصل إليها الهداية أما قلوب المؤمنين والمطيعين تصبح لينة حساسة تستقبل نور الله الهادي والمضيء.

وعندما يقول الله أنه قد أغلق قلوب المشركين والكفار وأقفلها، فلا يعني ذلك أن الله يريد الظالمين هم من يقفلوا قلوبهم بسبب المعاصي والذنوب والعناد وهي قوانين تخضع لقانون (العلة والمعلول) التي أخضع الله الخلق كله لها، لأنم إنكار الحقائق وارتكاب الشرور تجعل قلوب الكفار مغلقة ومغلَّفة وتصبح قلوب صدئة لا يدخلها النور الإلهي.

وتقول الآية: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14].

وفي آية أخرى يقول القرآن:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً..﴾ البقرة: 74].

لا إنكار لوجود الله

بعد أن قرأت القرآن وتمعَّنت بآياته، صرت أتساءل ما الذي ينبغي عليّ فعله، وقد اقتنعت أن القرآن يهدي إلى عقيدة منطقية ومنسجمة، وإني أعترف بأن الوحي قد أثَّر في نفسي وروحي بطرق لم أكن أتوقعها من قبل إذ بدا وكأنه أيقظ في نفسي روحانية كنت أنكر وجودها، ولكني ما زلت بحاجة لأحدٍ يأخذ بيدي إلى الخطوة التالية، فقد جعلني القرآن منفتحاً على وجود الله، ولكنه تركني في حالة برزخية، هل يساعدني الله على القضاء على هذه المخاوف الكثيرة التي أشعر بها، ما الذي يفترض أن أفعله الآن؟ إنني وحيد في خضم تساؤلات كثيرة تقتحم ذهني وعقلي، ولا اعتقد أن أحداً خاض مثل تجربتي، فأنا شخص كان ملحداً ولكنه لا ينتمي إلى بيئةٍ وتراث إسلامي، فأنا ليس في خلفيتي من أنتمي إليه، ولم أكن أعرف أمريكياً واحداً قد قرأ القرآن، وقد عثرت على هذا الفكر مصادفة كمن يجد رسالة في زجاجة على شاطىء معزول، ربما لا أكون أنا المقصود بها، فهل عليَّ الآن أن أعتنق الإسلام، وأُصبح واحداً من ثقافةٍ أجنبية لا أنتمي إليها؟

ـ لقد اكتشتف أثناء قراءتي للقرآن أن مناقشاتي الفلسفية ضد وجود الله، أضعف بكثير مما كنت أظن، وأنها كانت مبنيَّة على مجموعة مقولات لا يقبلها القرآن، وقد عرض القرآن حقائق لم أكن افكر فيها أبداً، وهي أفكار متماسكة وملفتة للنظر، والأهم من ذلك أنني مررت وشعرت بلحظات روحية، كانت غامضة في البداية، ولكنها أخذت تزداد قوَّة وشدة، وكلما ازداد انفتاحي على وجود الله، شعرت بالتحول الذي بدأ بصورة منطقية ويقظة روحية تدريجية.

والذي علمته وفهمته من قراءتي للقرآن، أن لدى الإنسان معرفة بالله متأصلة في نفسه منذ خُلق، وهي إحساس غريزي يخمد ويستيقظ حسب المشاعر

والأهداف الدنيوية وأغلب الأحيان يخمد هذا الإحساس بسبب التكبُّر والغطرسة التي تتحكم في الكثير من الناس، فهم يعرفون الله ويلجأون إليه بصورة طبيعية في أثناء المحن والأخطار، ولكن عندما يزول الخطر يعتبرون هذا الإحساس بوجود الله هو شعور عرضي لا قيمة له.

ويقول القرآن عن هذه الحالة: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: 65].

ـ هذه المشاعر كنت قد اختبرتها في إحدى المرات عندما كنت عائداً مشياً بعد تخرجي من «بوردو» فقد هبَّت عاصفة قوية ولم يكن هناك أي مأوى ألجأ إليه حتى تنتهي هذه العاصفة، وكانت الريح عاتية والمطر غزيراً والبرد شديداً والبرق خاطفاً، فهرعت في الطريق مذعوراً، وتذكرت أمي عندما كانت تدعو الله في الأزمات، وصرت أتوسل إلى الله وأقول:

«إن كنتَ موجوداً فلا تدعني أموت هنا» وبعد عشر دقائق هدأت العاصفة ومشيت بقية الطريق إلى البيت، ونسيت بعدها كل شيء يتعلق بهذا الدافع الديني، وفسَّرت الأمر بأنه مجرد هلع وخوف غير منطقي قد أصابني، لأن شعوري بعدم وجود الله كان يسيطر عليّ، وعندما ألجأ إليه بصورة عفوية طبيعية وآلية كنت أتنكر لهذا الشعور وأقاومه.

ـ كانت مشاعر العزلة والفراغ الروحي تسيطر عليّ بالرغم من أن حياتي الاجتماعية كانت مليئة بالأصدقاء وبعد أن قرأت القرآن، صرت أسائل نفسي، لماذا أرفض هذه الآيات والنصوص التي دخلت إلى قلبي وألهمتني؟ كم يلزمني من الوقت لأتعرَّف على نفسي ومشاعري الحقيقية، وأنا ذلك الظمئآن، الضائع المتجول بلا مرشد في صحراء المطالب الدنيوية، أكافح للوصول إلى سراب من بعد سراب.

لماذا أتنكر لهذا القرآن ولا أقبل ما حدث لي وأنا أقرؤه ومن أحاسيس روحية جميلة؟ لماذا أُفوّت الفرصة مع هذه التجربة وأغتنم الصوت الذي يناديني

بصورة شخصية، وأرفض الاعتراف بهذه الحميمية والحب اللذان شعرت بهما وأريد أن أتجاهلهما؟ وما الهدف من إنكار ذلك؟

لماذا لا أعترف بأن هذا الذي كنت أتوق إليه توقاً موجعاً، والذي كنت أفتقده وأسعى إليه دون أن أشعر، ليس سوى الله.

أخذت أفكر أن هذا الذي يحدث هو لشخص يرفض الدين ويتنكر لروحهِ التي تهفو إلى خالقها ويسخر من الإيمان.

إذن لماذا هذا الإكتئاب كله يسيطر عليّ؟ لماذا لا يتخلى عني ولا أتخلى عنه؟

في الثامن من تشرين الثاني/نوفمبر عام 1982 كانت الساعة الثالثة بعد الظهر، ذهبت إلى المسجد الذي كان في قبوِ كنيسة القديس إغناطيوس في جامعة فرانسيكسو قلت لنفسي إني ذاهب لأطرح بعض الأسئلة وكنت مقتنعاً أن اعتناقي للإسلام كان مستحيلاً، وبعد نصف ساعة خرجت من المسجد مسلماً.

وقد تحدثت عما جرى لي في المسجد في كتابي «الصراع من أجل الإيمان».

السؤال الخامس: وهو موجَّه من ابنتي وهي في الحادية عشرة من عمرها:

كنت أتحدث مع ابنتي في أحد أمسيات الخريف، فسألتني قائلة: بابا، أفهم أنك عندما كنت ملحداً كان لديك أسئلة حول الله لم تستطع الجواب عنها، وأنك وجدت هذه الإجابات في القرآن ولكن ما الذي جعلك تعتنق الإسلام؟

قلت لها: أنني عندما كنت أفتش عن احتمال وجود الله، بدأت أمارس تجربة روحية في اثناء قراءتي للقرآن، كنت أشعر أن القرآن يكشف لي عن أحاسيس ومشاعر تدل على معرفتي بالله ولكني كنت منصرفاً عنها لأنني كنت أعاني من صدمةٍ روحية في طفولتي، وبدا لي كأنني فقدت ذاكرتي، ثم بدأت أستعيدها عندما قرأت القرآن.

نَظَرت إليَّ وقالت: بابا، لم أقتنع بما قلته، فسألتها وقد شعرت بالإحباط، لمَ تقولين هذا؟ قالت: لأنني لا أشعر بأنني أعرف الله؟

تابعنا سيرنا، وصرت أفكر كم كنت متسرعاً عندما طرحت مثل هذا التوضيح لابنتي التي ما زالت في الحادية عشرة، وأنا الذي ما زلت لا أفهم تماماً كيف تحوَّلت من الشك إلى الإيمان، فكيف أستطيع أن أشرح لها التجربة التي مررت بها حتى لو كانت أكبر من ذلك، فهل كنت أعرف الله وأنا في سِّنها، كنت كل ما أعرفه عن الله، هو أن أتوسل إليه في ساعة الشدّة ثم أنساه بسرعة.

ثم خطرت لي فكرة تذكرتها وقلت لها:

جميلة! أتذكرين يوم نقلوني بسيارة الإسعاف إلى المستشفى في يوليو الماضي؟ فأجابتني وبدا عليها الإرتباك: نعم، فتابعت سؤالي، هل تذكرين كيف علَّقوا بي تلك الأسلاك والأنابيب كلها، ولم أستطع حينها أن أتحرك، وكنت أرتجف وأتنفس بصعوبة؟ فقالت بحزن: نعم، قلت في ذلك الوقت، هل صلَّيتِ إلى الله كي لا يمِيت أباك، وأن يبقيه حيّاً، هل طلبت العون من الله؟

قالت: نعم، فسألتها من علَّمك حينها كيف تصلِّين إلى الله بهذه الطريقة؟ قالت: أنت الذي علَّمتني كيفية الصلاة، قلت لها: أنا لا أتحدث عن الصلاة الشعائرية التي نصليها بالعربية، إنما أعني، من علَّمك كيف تكلّمين الله، وكيف تتواصلين معه شخصياً؟ هل أنا قلت لك أو أي شخص آخر أن تقولين تلك الكلمات، وأن الله سيسمعها، فأجابت: لا، فسألتها: إذن من علمك، كيف عرفت ما تفعلين بصورة آليه هكذا؟ فقالت: لم يعلِّمني أحد، ولكني عرفت بنفسي.

قلت لها معنى ذلك أن لك إدراك طبيعي لله، ولكن تحتاجين إلى معرفة أكثر.

السؤال السادس: من باحثة لديها أسئلة عديدة تأتيها من شباب أبويهم من

الهندوس، وتقول: لماذا تُعدّ عبادة الأصنام خطأ؟ إذا لا أحد يعتقد أن الأصنام آلهة.

الجواب: يبدو أن السائلة تسأل عن البوذية، والهندوسية دين واسع يتطلب معرفة أكثر مما أعرف، ولكن لا بد من قول بضع كلمات وملاحظات: ينتقد فيها القرآن عبادة الأصنام، وهي تُعدّ من مواضيعه الكبرى. القرآن يعرض قضية الشرك بالله، وهو موضوع أوسع وأعمّ من عبادة الأصنام، والشرك يعني المشاركة.

إن أقسى وأبشع دلالات الشرك، هو تأليه الأصنام المنحوته أو الأجرام السماوية، وقد عبد المشركون في عهد النبي كما يقول القرآن: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 23]. وهذه الأسماء هي للآلهة من الأصنام التي كانت تمثل القوّة والجمال، وأحياناً تمثل القديسين المتوفين والملائكة والأنبياء.

كان المشركون يسعون إلى شفاعة هذه الأصنام وينحتونها ويتصورون أن الآلهة هي أناثاً من الملائكة يطلبون شفاعتها، وكان الكثير من المسيحيين يصلُّون للمسيح ومريم ولقديسين آخرين، ومنهم من كان يعبد أشخاصاً كالمصريون الذين كانوا يعبدون الفراعنة.

القرآن يرفض هذه التصورات ويعتبرها شرك.

وهناك شرك آخر وهو عبادة الهوى والرغبات الذاتية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23].

والشرك يعني إسلام النفس على غير الله أو يضع معه شركاء أو أنداد يعتقد أن لهم سلطة إضافية مع الله، فيقول القرآن عن اليهود والنصارى أنهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 31].

ـ ومن أسوء أنواع الشرك انتشاراً، هو ترويج الخطيئة التي ينسبونها إلى

الله، فقد استخدم الصهاينة الكتاب المقدس وحرّفوه ليطردوا الفلسطينيين من بلدهم فلطسين، وكذلك فعل المستوطنون الأوروبيون عندما هاجروا إلى أمريكا فطردوا سكانها الأصليين، ووصفوهم بأنهم قوى شيطانية.

وكذلك اليابان عندما شنَّت حرباً على الصين باسم «هيروهيتو» وهو الإمبراطور الذي جعلوه إلهاً لهم مع أنه لم يكن يعتبر نفسه كذلك.

واليوم فإن بعض المسلمين من المنحرفين والمجرمين يدَّعون أن الإسلام يأمر بقتل المدنيين باسم الله، والكنيسة التي كانت تعذِّب الناس وتأمر بإعدامهم على أنهم «هراطقة» وذلك في أثناء محاكم التفتيش، وفي شبه الجزيرة العربية كان الناس يضحون بالأطفال لإرضاء الآلهة.

وهناك أمثلة كثيرة على القيام بأفعال شنيعة تنسب إلى الدين، وأستطيع القول أنه ما من دين محصَّن إلا وله أنماط من الشرك.

والقرآن يُحذِّر من هذه البدَع الدينية التي تؤدي إلى الشرك، وقد جعلت بعض الأديان من أنبيائها آلهة، فتقول الآية:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: 30].

ـ في التراث اليهودي يستخدم مصطلح (ابن الله) الذي يذكر كثيراً في العهد القديم (التوراة) وهي كلمة مجازية ترمز وتدل على العلاقة الوثيقة بين المؤمن وربّه، وكذلك المسيحيين جعلوا من هذا المصطلح (ابن الله) على أنه شخص ثانٍ من الإله الثالوثي، وأصبحت هذه العبارة تستخدم للتعبير عن جوهر عقيدة يستنكرها القرآن ويقول أن عبارة (أبناء الله) هم ليسوا أحب إلى الله من سواهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: 18].

ـ هذا المفهوم الديني أدّى إلى عبادة خاطئة، والقول بالتثليث، وهذا

المفهوم يرفضه القرآن، فتقول الآية: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: 171].

ـ وفي آية أخرى يقول القرآن:

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 73].

يحذِّر القرآن من البدع التي تتشابه مع الشرك بغض النظر عن القصد الأساسي منها.

والشرك يمكن أن يتخذ أشكالاً عديدة، فيفقد الدين جاذبيته المنطقية والعقلية، ويفقد سلطته الأخلاقية وفعاليته الروحية.

ـ يذكر القرآن أن أجداد قريش الأوائل، إبراهيم وإسماعيل كانوا مؤمنين بإله واحد، واقاموا الكعبة في مكَّة لعبادة الله الواحد الأحد، وعلى مرِّ القرون غطيت عقيدة التوحيد بشرك تام وشديد، وتمَّ إضعاف الدين، وأهم أسباب هذا الشرك هو التبرير للفساد والفسق الذي انتشر بينهم.

ـ إن التحذير من الشرك في القرآن، هو دعوة عامة للمسلمين ولغير المسلمين، لأن الكثير ممن ادعوا أنهم يؤمنون بالله ويعملون باسمه، فإن ادعاءاتهم كانت كاذبة، فهم كانوا يتبعون تقاليد ابتدعوها وأصبغ عليها علماء الدين الصفة الدينية:

وتقول الآية في سورة النحل:

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النمل: 116].

السؤال السابع: من طالب جامعي أمريكي مسلم وهو حول «القضاء والقدر».

يقول هذا الطالب: أن الإمام قال في خطبة الجمعة أن الله يقرر أعمالنا سلفاً، بما في ذلك ما نختاره، وإن من لا يقبل هذا الفهم للدين فهو غير مسلم، لا يبدو ذلك عدلاً في نظري، وأخشى أن اصبح ملحداً.

الجواب: إن الفهم الذي يعتنقه هذا الإمام يُعدّ وجهة نظر متطرفة، وهي تمثل أشد وأقسى صياغة فكرية لم تقبل فيها المذاهب الإسلامية الأخرى، إن الجدال الذي كان يدور بعد وفاة الرسول، حول الإرادة الحرة والاختيار، وبين القدر الإلهي الإجباري جعل المسلمين مربكين ومختلفين بين رأيين متناقضين، الرأي الإلهي القرآني، وبين رأي بعض المسلمين الإجباري، وليس هناك أي سبب يلزمنا بقبول القدر الإجباري، لأن الله عادل ومن غير المعقول أن يقرر مصير أي إنسان إلى جهنم بسبب أعمال أجبره على القيام بها، ويصبح لا معنى لحث القرآن للناس على عمل الصالحات وإقامة العدل، وبعث الأنبياء لهداية الناس والقيام بالأعمال الخيّرة، وأن الحساب سيكون في يوم القيامة والجزاء سيكون ثواباً للصالحين وعقاباً للكفار والفاسدين.

وهناك آيات كثيرة في القرآن توضح هذه المسألة، ففي الآية من سورة الأنعام تقول:

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: 148].

وفي آية من سورة النحل تقول:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النمل: 35].

ـ وتوضح هذه الآيات أن الله لم يجبر الناس على عبادته ولا على عبادة الأصنام فقد تركهم يختارون طريقهم بأنفسهم وبعث لهم الأنبياء ليدلّوهم ويبلّغوهم التعاليم التي تهدي إلى الحق.

السؤال الثامن: من مسلمة من الجيل الثاني في العشرينات من عمرها وهي تعيش في أمريكا، تقول:

لا أ ظن أن الله عادلاً لأنه لا يعطينا الفرص نفسها للهداية والدخول إلى الجنة، فهل الذي يتربى في بيئة فاسدة يحيط به الفقر والتعاسة والألم فيعيش في كابوس مرعب ويسلك طريق الأشقياء فيدخل إلى الجحيم، هل يتساوى مع من يتربى في أسرة نموذجية ويحاط بالحب والحنان والرفاهية فيصبح عقله متنور وينفتح قلبه للهداية فيدخل الجنة؟

الجواب: سأعطيك مثلاً من تجربتي الخاصة: كانت المدينة التي نشأت فيها في «كونيتكيت» مدينة فاسدة وعنيفة تمور بالعنف العرقي والشغب والصراع بين العصابات والجريمة، وقد انتهى بعض أصدقائي إلى السجن وقد أُدينوا بجرائم عنف كبيرة، وبعضهم صاروا لصوصاً، وآخرون بائعون متجولون وتحوَّل معظمهم إلى إدمان المخدرات، وكانت حياتنا البيتية أسوء من الفوضى الخارجية، فوجود أحدنا في البيت كوجوده في السجن، أو كأنه مدفون وهو حي.

كان والدي مدمن للخمر، عنيفاً يهين والدتي ويسيء إليها، وقد تبعوه إخوتي في نفق المخدرات، وقد استطعت أن أكمل تعليمي الثانوي وأدخل الجامعة، وكان زملائي يسالوني باستغراب كيف نجوتُ بطفولتي من هذا الجو الفاسد واستطعت أن أحيا حياة طبيعية سعيدة كما كانوا يرونها لم أكن قديساً، ولكن كان لديّ إحساس قوي بالخطأ والصواب، بالرغم من أني كنت أحياناً أقاوم هذا الإحساس وأتيح له أن يتبلَّد، وكنت أشعر أحياناً بأن ثقتي في نفسي ضعيفة، وإذا قال لي أحد بأنك وسيم أو ناجح فلم أكن أصدّق ذلك أبداً كنت أشعر أنني أُخدع باستمرار وأن الآخرون يسخرون مني، لأنني كنت أنظر إلى داخلي فلا أرى شيئاً جميلاً أو وسيماً، بل أرى شخصاً مجروحاً مشوَّهاَ، وكنت

أظن أن هذا الشعور سيرافقني مدى الحياة، ولكن هذه الصورة تلاشت بالتدريج.

أنا لا أؤمن بأن جيناتنا وبيئتنا هي التي تحدِّد شخصيتنا ومصيرنا، بل أعتقد أن البشر يتمتعون بإدراك أخلاقي وروحي يزداد ويتناقص بسبب الخيارات التي يتخذونها، وأنا لا أقول أن الجينات والبيئة لا تؤثر ولكني أشعر أن الإرادة وحرية الإختيار يؤديان دوراً محورياً في حياتنا، ولا أنكر أن ظروف الحياة غير متساوية للجميع إذ يولد بعضنا في ظروف تقوده إلى الفضيلة، والبعض تقوده ظروفه إلى الفساد.

وإن هذا الواقع يجيب عليه القرآن في آيات متعددة ففي آية من سورة الأنعام تقول:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 160].

وفي سورة النساء تقول الآية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40].

أي أن الله عالم بكل ما يجري في هذا الكون، وأن الظروف غير متساوية أمام البشر، وأن الله سريع الحساب لا يمكن أن يظلم مقدار ذرَّةٍ واحدة.

إن العمل الصالح الذي يقوم به إنسان فاضل عاش في بيئة سليمة، قد يقوم بأقل منه بكثير شخص يواجه معقوات كثيرة فيُعدّ إنجازاً روحياً وأخلاقياً، لذلك يقول القرآن أننا سوف نُمتحن حسب قدراتنا وخصائصنا، فتقول الآية: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۖ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: 62].

إن صدقةً بقيمة دولار واحد من فقير تزِن أكثر بكثير من صدقةٍ مثلها من غنيّ.

وهذا المفهوم بالجزاء عن العمل الصالح، يدعمه الحديث النبويّ الشريف

الذي يؤكد أن لا حدود لرحمة الله، لقد وجبت الجنَّة لإمرأة سقت كلباً كاد يموت من العطش مع أنها فاسقة وجاهلة.

وإن العقاب سينال الرسول ولو افتراضاً أنه قصَّر ولم يبلِّغ الرسالة كما يريد اللهن لأنه كان في اعلى درجات العلم والمعرفة، وكذلك بالنسبة لزوجاته إن ارتكبن إثماً، فتقول الآية:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [الأحزاب: 30].

لذلك فإن حسابنا وجزاءنا يتناسب مع ما منحنا الله به من قدرات ونِعَم، وما تهيَّأ لنا من ظروف، والقرآن والحديث النبوي يدعمان هاذ المفهوم النسبيّ لعمل الخير ولعمل الشر.

السؤال التاسع: من طالبة جامعية غير مسلمة وآخرين مسلمين طرحوا أسئلة تتعلق «بالغاية من الخلق» إذا لم يكن الله بحاجة إلى شيء فلاذا خلقنا؟

الجواب: السؤال فيه كثير من الصعوبة، لأنه لا يتحدث عن مسألة هيِّنة، ولأن خبرتنا كبشر ولغتنا قاصرة عن إدراك الله إلا بشكل تقريبي، ولكنني سأحاول ولا أدَّعي ان هذا الذي سأقوله هو التفسير الصحيح بل مجرد استنتاج شخصي.

ـ القرآن يؤكد أن الله غني عن العالمين، ولكنه يذكر القرآن باستمرار أن الله يشاء ويريد، والمشيئة والإرادة لا تعني الحاجة بل تعني القصد والغاية. مثل عبارات: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ و﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ و﴿ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ و﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ و﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾.

لا يمكننا التوصل إلى فهم كامل في هذه المسألة، لأننا لا نفهم الحب الكامل المطلق من دون حاجة عاطفية ولا نفهم الرأفة على العباد من دون تعاطف، والعطاء من دون تضحية، لأننا لا نفهم الكمال المطلق النقي والصافي لله.

لقد خلق الله الكائنات البشرية ونفخ فيها من روحه: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ

مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أي أن الإبداع والخلق هو أيضاً موجود عند الإنسان وغالباً ما يحب البشر أن يبتكروا ويبتدعوا أمور وأشياء هم ليسوا بحاجة لها، ولكن هذا الإبداع في الطبيعة البشرية هو سِمة جوهرية من سمات البشر كالفعل والجود من الله.

عندما كنت في المدرسة الإبتدائية، كنت أخترع مسائل وأُحجيات ونظريات قبل أن أتعلمها في المدرسة، وكانت أسرتي ترى أن هذا نوع من الهوس والحب لمادة الرياضيات، ولم يكن لي أيّ غرض محدَّد من ذلك. ومن صفات الله وأسمائه هو المبدع والخالق والبارىء وقد أوجد الخلق ليعبدوه ويعرفوه، ويكونوا خلفاء له في الأرض، ويجسدوا أسماؤه وصفاته.

الفصل الثاني

أين ذهب أبناء المسلمين في أمريكا:

كانت محاضرتي اليوم هي أن على المسلمين أن لا يتوهموا بأن ينتمي الجيل الثاني من المسلمين في أميركا إلى الإسلام في الوضع الحالي، وقد أخبرني أحد الأصدقاء من المسلمين المهاجرين قصته مع أبنائه وقال:

أن إبنه عندما أصبح بالثانوية لم يعد له أي علاقة بالإسلام وقد توترت العلاقة معه ثم تطورت الأمور إلى أن أصبح مدمناً على الخمر، وأن ابنته بعد أن ذهبت إلى الكلية نزعت حجابها وصارت تبتعد عن الإسلام رويداً رويداً وصارت تشك في كل شيء،/ ثم تعرّفت على شاب غير مسلم وسكنت معه، وقال هذا الصديق في نهاية قصته أن الدمار قد حلّ ببيته وهو الآن في حالة يأس شديد ويشعر بأن أولاده خانوه وخذلوه.

إن المهاجرين المسلمين من الجيل الثاني لم يعد لهم أي ارتباط بالإسلام، والمجتمع الأمريكي يُغري بالابتعاد عن الدين، والإعلام يقوم بدور تشويه الإسلام وإظهاره بأنه دين شيطاني وخاصة بعد 11 سبتمبر/ أيلول.

الأديان كلها تشكو من مؤثرات الثقافة الغربية، فالاستهلاك المبالغ فيه، واستغلال الجنس وترويجه كلها أضرّت، حتى أن البوذيون والهندوس انحرفوا عن دين الآباء والأجداد.

من الصعب على المرء أن يكون مسلماً بسبب هذه الضغوط مع أن الإسلام يجتذب إليه الناس أكثر من أي دين آخر، بالرغم من كل المؤثرات السلبية.

على زعماء المسلمين ومفكريهم أن يبحثوا عن حلول ليجدوا العلاج لهذه المشاكل التي تواجه لمسلمين في أمريكا وغيرها من الدول الغربية وحتى الإسلامية، لأن الخطر يأتي من المجتمع الأميركي، ومن المساجد والمراكز الإسلامية، ومن الآباء الذين يجعلون من التقاليد والعادات الجزء الأكبر من الدين، وأما روح الدين الإسلامي كدين إنساني عالمي لا يعطوه الأهمية اللازمة.

في المراكز الإسلامية من النادر أن تجد خطيباً أو إماماً يندد ببعض الخرافات في التراث الإسلامي، ويقول لك أن هذا هو الإسلام وإن لم تقبل فأنت لست بمسلم والإتهامات حاضرة بالكفر والذهاب إلى جهنم وهم لا يتحملون أي رأي مغاير لآرائهم.

ـ وكذلك فعل المسيحيون في فترة من العصور الماضية ولكن أين يذهب الشباب وأين البحث العلمي لحل كل هذه الإشكالات.

أعتقد أن الجامعة هي خير ملاذ للجماعات المثقفة بوجه عام لكي يقوموا بالبحث والتحليل النقدي العميق فيما يعانون منه وسيجدون أن هناك الكثير من القضايا التي تزعجهم وهي أمور فرعية وموروثة ومتطرفة وبعيدة جداً عن روح الدين ودوره العظيم لهداية الناس.

ـ بعد أن اعتنقت الإسلام منذ سنين، تلقيت القليل من الرسائل والهواتف البريدية، ولكن بعد نشر كتابي الأول (الصراع من أجل الإيمان) سنة 1994 بدأت أتلقى رسال وهواتف بريدية ممن اعتنقوا الإسلام في العالم كله، ثم بعد نشر كتابي الثاني (حتى الملائكة تسأل) سنة 1997، بدأت أتلقى بريداً من المهاجرين المسلمين من الآباء والأمهات يبحثون عن النصيحة حول كيفية التعامل مع أبنائهم الضالين، وقد جاءتني رسائل من غير المسلمين ممن يحققون ويبحثون في الإسلام، وهذه الأسئلة جعلتني أصدر كتابي الثالث (ضياع ديني).

ـ إن المسلمين المولودين في أمريكا الذين يعتقدون أنهم تحرّروا من الدين، وهم في الحقيقة ما زالوا مرتبطين بالإسلام بشكل أو بآخر ويقلقون من أجله، بينما زعماء المسلمين في طول البلاد وعرضها يقولون أن غالبية الشباب ضائعين ولا مبالين.

إن نسبة الشباب التي تشكل ثمانون في المئة من الشباب المسلمين الأمريكيين ستبقى تعاني هذه الإشكالات إذا اعتمدت فقط على الجالية الإسلامية.

ـ إذن ما هو الحل؟

إن لمسلمين من أبناء المهاجرين يعتبرون أمريكا وطنهم ويعتادون على القيم والعادات نفسها ولكن بعض الآباء المسلمين يسعون لعزل أبنائهم عن المجتمع الأوسع، وهذا الالتزام يحتاج إلى جهد كبير، وهو غير ناجح في معظم الأحيان.

ولكن هناك مسلمون آخرون يشعرون بأنهم بحاجة إلى الإندماج ولكن بأسلوب ذكي وتربية ناجحة بأن يعرفوهم على مضمون الدين الحقيقي والالتزام به من دون تطرف أو تشدد، وإبعاد أولادهم عن العادات الغير مرغوب فيها، لذلك ليس صحيح أن الشباب من المسلمين الأمريكيين قد جرى إغوائهم عن دينهم، ولكن الواقع هم ما يزالون بين الثقافة الأوسع والثقافة الفرعية الإسلامية، ولأنهم لم يعيشوا في مجتمع تقليدي فهم يناشدوا باستمرار أن يفصل الآباء الدين عن الثقافة، وأنهم يحبون أن يعتنقوا المعتقدات والممارسات الجوهرية في الإسلام، وأن أغلب الأسئلة تتعلق بالثقافة وليس بمضمون الدين.

ـ ولذلك سأشير إلى بعض المشكلات والهموم التي شاركني بها المسلمون في الولايات المتحدة الأمريكية. وهي مواضيع أربعة:

1 ـ مكانة المرأة:

إن أكثر ما يشكل عقبات في نظر المسلمات الأمريكيات من غير المهاجرين، هو عزل النساء في المساجد وفي اللقاءات والمؤتمرات.

ولأن المرأة ناضلت طويلاً ضد التمييز بين الرجل والمرأة فإن النساء يعتبرن أن هذا التعامل فيه تحيز وظلم واضطهاد، وتقول امرأة أفريقية مسلمة: إن شعبي الذي سُمح له حديثاً تناول الطعام في المطاعم مع الآخرين من البيض، وحق الركوب في المقدمة من حافلات النقل، يقال لنسائه اليوم، أنه عليكن أن تبقين في الغرف الخلفية من المسجد!!

وهناك قاعدة شرعية قديمة ما زال بعض المسلمين يتمسكون بها تقول: «كل ما يؤدي إلى حرام فهو حرام». وأدى هذا المفهوم لعزل النساء عن الرجال، وإلى الصرامة، حتى وصلت الأمور إلى منع المرأة من الخروج من منزلها إلا لضرورات قاهرة.

وهذه الثقافة أدّت إلى منع المرأة من قيادة السيارة، ولو منعت الولايات المتحدة النساء من قيادة السيارة لاحتاج كل بيت إلى سائق من أجل أن ينقل النساء والأطفال، والقرآن يحذر من التطرف والتعصب: فتقول الآية في سورة النمل:

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النمل: 116].

إذن لا بد للمسلمين في أمريكا أن يعيدوا النظر في تقويم عاداتهم وتقاليدهم باستمرار ليميزوا ما هو جوهري وأساسي للدين، وما هو غير ذلك، وأن يتخلصوا من كل عادة تعد غير ضرورية بل تكون مسيئة وضارة بالإسلام، ويجب مناقشة هذه المواضيع لتصبح متوازنة.

إنني لم أرَ في القرآن نصاً واضحاً يؤيد عزل المرأة، أما آية الأحزاب فهي تخص النبي وليس جميع المسلمين.

توجّه هذه الآية اصحاب النبي من الذكور منهم والإناث ألا يدخلوا حجرات زوجات النبي دون إعلام ودون إذن كما كانت عادات بعضهم في الجاهلية، كانوا يدخلون البيوت بدون إذن، فتقول الآية أن على الأصحاب أن

يبقوا خارج الغرفة وأن يخاطبوا نساء النبي من وراء حجاب، ربما تكون الآية لصيانة آل النبي من المواقف الحرجة وتوفير خصوية لهن في مرحلة كانت البيوت صغيرة وضيقة والحشود من الناس الذين اعتنقوا الإسلام هم معظمهم من البدو الأفظاظ.

القرآن لا يوحي بأن هذا الوعظ بأنه عام وهناك أدلّة كثيرة في الأحاديث التي تروى عن النبي والصحابة أنهم كانوا يزورون نساء من غير محارم ويأكلون من وعاء واحد، وهناك أمثلة عديدة عن نساء مسلمات شاركن في المعارك يقاتلن ويقدمن الأقواس والسهام ويحملن الطعام والماء إلى الجنود ويعالجن المصابين، ويُروى عن امرأة ناقشت عمر بن الخطاب في المسجد أثناء خلافته بشأن تحديد مهور النساء.

كل الأدلَّة تبين أن عزل النساء عن الرجال لم يكن حكماً مفروضاً في زمن النبي، ولذلك فليس هناك من مسوّغ لفرضه في تجمعات المسلمين الأميركيين لأن فرضه يضع عبئاً غير ضروري على المجتمع، ويشكل عقبة أمام الساعين إلى الإيمان، ولا يعني ذلك أن لا يكون حدود، وأن تضرب المواعيد الغرامية الشائعة في الغرب، لأن هذه الممارسات خارج نطاق الزوجية تؤدي إلى ممارسة الجنس وإلى الفوضى ويجب الإلتزام بالتعاليم الأساسية الثابتة هو أمر محسوم لا بحث فيه ولا تردد.

ـ أما إبعاد المرأة عن مراكز السلطة فليس غريباً لأن المرأة كانت تعاني من هذا الإبعاد في جميع المجتمعات تقريباً حتى منتصف القرن العشرين أما اليوم فإن المرأة تشارك في جميع المجالات وإن ظلّت نسبتهن قليلة، وليس هناك أي مجال عمل لا تستطيع المرأة أن تشارك فيه وتحقق النجاح.

أما المتزمتين الإسلاميين يأخذون أدلتهم من حديث نبوي آحادي وهو في صحيح البخاري، ووافق عليه العلماء في القرون الأولى، ولم يسمحوا للمرأة أن تحتل أي موقع قيادي، والحديث لم ينقله أحد من الصحابة فهو ليس ثابت

وصحيح، والحديث يقول أن الرسول عندما بلغه أن أهل فارس قد ملّكوا عليهم امرأة وهي بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوّا أمرهم امرأة» والسبب الذي جعلني اشكك بهذا الحديث هو القرآن نفسه الذي يصوِّر ملكة سبأ بأنها امرأة حكيمة عادلة قوية الثقة بنفسها وقد حققت لشعبها نجاحاً عظيماً بإدارة أمور الحكم في بلدها ثم بعد ذلك اعتنقت عقيدة سليمان التوحيدية فتبعها شعبها، وقد حقق شعبها النجاح بفضل قيادتها الحكيمة بكل المقاييس الدنيوية والروحية.

ـ إن عدم الدقة في نقل الأحاديث النبوية، ظاهرة معروفة جيداً لدى علماء الحديث الأقدمين والمحدثين فهم يعترفون أن الرواة كانوا ينقلون الحديث كما يفهموه، وليس بنصه الحرفي، وهذا ما يفسِّر الاختلافات التي نواجهها في الأحاديث التي تتعلق بموضوع واحد أو بالحادثة ذاتها، حتى ان الصحابة كانوا يصححوا لبعضهم فيما يعتقدون أنهم سمعوه من النبي، وأنا لا أقول أنه علينا أن نلغي الحديث كلياً، ولكن علينا عرض ا لحديث على القرآن فإذا لم يوافقه، فيجب أن نعزو الأخطاء إلى النقل.

بين عالمين:

إن معظم الشباب المسلمون في أمريكا، الآتون من أسر متدينة يرتبطون بالإسلام، وهو في نظرهم محور حياتهم، ولكن ما إن يصلوا إلى سن معينة حتى يتآكل لديهم الإيمان الذي عرفوه أطفالاً، ويبحث الكثير منهم من خلال الأسئلة والشكوك التي تؤرقهم عن أجوبة وتفسيرات ولكني أشعر بأني لست أهلاً لهذه المهمة فأحيلهم على من هم أكثر كفاءة مني وأحياناً أترك رسائلهم في علبة البريد الألكتيروني عدة أسابيع لأجد أفضل طريقة أجيب بها على أسئلتهم.

إن أكثر ما يبعد الشباب عن الدين هو الانقسام الفكري بين ثقافة المسجد التقليدية السائدة، وبين مجتمع يحيط بهم مليء بالإبداع والابتكار، بينما المسجد يضغط بتقاليد معينة لا تتغير وهي تعود إلى تراث قديم.

ـ إن الشرخ الحاصل يترك الجيل الثاني تائهاً لا يعرف إلى أين يلجأ

لمواجهة شكوكه وهواجسه المتعلقة بالتراث الذي ورثه، وإذا ترك هؤلاء الشباب فإنهم سيبحثون عن إجابات خارج مجتمعهم الإسلامي. وهناك الكثير من المواقع المناهضة للإسلام في الانترنت يمكن الوصول إليها وهي تعمل على تعميق الشكوك الموجودة.

ثم هناك الجامعة حيث يتعلم الطلاب أكثر المقاربات حداثة لدراسة التراث الديني، ويمكنهم أن يتعلموا النقد التاريخي ونقد النصوص، ويلاحظوا تطبيقها في ميادين الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية، لا يوجد في البحث الحديث أي سلبيات، ولكن المحاضرين غير المسلمين الذين يدرِّسون أكثر المقرّرات الإسلامية، فهم على الرغم من محاولتهم أن يكونوا منطقيين وموضوعيين، إلا أنهم ينزعوا إلى الشك في الإسلام.

ولحسن الحظ تقوم اليوم جامعات كثيرة بتكليف أعضاء هيئة تدريسية من المسلمين لتدريب المقرّرات الإسلامية.

ـ المجتمع الإسلامي الأمريكي غارق في تجاهل مطبق، والمشكلة معقَّدة، ولا أدَّعي أن لديَّ حل وإني أشك في إيجاد علاج شافٍ لهذه القضية، فهؤلاء الشباب قد ابتعدوا عن المسجد ونبذوه واعتبروه لا يصلح إلا لآبائهم، وعندما يفرغ أحدهم من دراسته يتزوج وغالباً ما تكون الزوجة غير مسلمة، فينشغل بأعماله وتربية أطفاله، وتستولي عليه الحياة الأمريكية ويبتعد نهائياً عن الدين، وعندما كنت أسأل بعض الطلبة من الجيل الثاني عن سبب عدم حضورهم إلى مسجد الجامعة يقولون: إن الطلبة هناك متطرفون جداً ومحافظون وتقليديون.

وقد بادر بعض الطلبة المبدعون في عدد من الجامعات إلى تشكيل مجموعات من الطلبة ليتعلموا الإسلام دون أن يلتحقوا بجمعيات الطلبة التخوينية، وهم يفضلون انتهاج المسلك الذي يرونه مناسباً للتواصل مع دينهم وللمساهمة في تنمية المجتمع الإسلامي في أمريكا. ولكن على الجالية الإسلامية أن تجعل المسجد بيئة أسرية ودية يشترك في مهامها الآباء والأبناء والأمهات كأسرة واحدة، قبل أن تمتصهم الثقافة الأمريكية المحيطة بهم.

ـ وإذا لم يستطع زعماء الجالية الإسلامية أن يغيروا أساليبهم وتطرفهم، فهم يتحملون مسؤولية تضليل الملايين من المسلمين الذين أسلموا، والذين يمكن أن يهتدوا إلى الإسلام ويصرفوهم عن الدين.

ـ إذا تحوّل المسجد على محور فكري يبحث القضايا الإسلامية ويناقشها دون خوف أو عقوبة، وهذا يتطلب احترام الحرية والتعبير واختلاف الرأي، كما كان يحصل في مطلع الدعوة الغسلامية، نكون قد سلكنا الطريق الصحيح.

إن معظم الزعماء والأئمة الموجودين حالياً لم يحصلوا على ثقافة عليا في الإسلام، ولا في أي دراسات أخرى أما غالبية الجيل الثاني فهم مثقفون جامعياً ومهيؤون للبحث في العلوم الاجتماعية والدينية، وهذا من الأسباب التي تجعل التباعد والنفور من المسجد كبيراً، وأعتقد أن على الشباب المثقف والطلاب أن يبادروا إلى استلام زمام الإصلاح في الجالية والمجتمع.

ـ ومن المشاكل التي يعاني منها المجتمع الإسلامي الأميركي، هي أننا نرى المسلمين يفضلون الذين يدخلون الإسلام من الأميركيين البيض على المسلمين السود، وأعتقد أن السبب في ذلك، هو هيمنة الحضارة الغربية حالياً، وليست الكراهية أو التمييز العنصري، لذلك نجد اليوم أن السود لهم مساجدهم الخاصة بهم، مما يؤدي إلى تفتيت المسلمين، وضعفهم.

ـ من الطبيعي أن يكون هناك تنوع ثقافات، ولكن الدين الإسلامي مؤسِّس على مفهوم الأخوَّة ويعتبر التعصب نشازاً كبيراً.

وهناك مشكلة أخرى، وهي أن معتنقي الإسلام الجدد يتعلّمون دينهم من المهاجرين المسلمين الذين لديهم ثقافة تقليدية معينة لا تتناسب مع الحضارة الغربية فيشعرون بانفصام ثقافي وعقلي ويشعرون بأزمة هوية.

ـ ومن الأخطاء الفاضحة التي يرتكبها بعض هؤلاء المسلمين المتعصبين، أنه قد صدر منذ فترة عن سلطة دينية عليا في أمريكا، أن مفتي المملكة العربية السعودية قال: «أن اليهود حثالة الأرض وجرذان البشرية، وسلالة القرود

والخنازير، ونُشِر هذا التعميم العرقي الصادر عن هذه السلطة، ولم تصدر أي إدانة عن الجالية الإسلامية مع أن الكثير من نشطاء اليهود الأمريكيين يعملون مع الفلسطينيين في نضالهم ضد الإحتلال، مثل: «آدم شابير» و«ستانلي كوهين»، وهو محام يهودي أقام دعوى ضد حكومة إسرائيل باسم الأميركيين الفلسطينين متهماً إياها بجرائم الحرب، ومثل «راشيل كوري» الأميكرية اليهودية التي قُتلت وهي تحاول منع القوات الإسرائيلية من تدمير بيوت الفلسطينيين والقرآن يقول في سورة المائدة:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ...﴾

ـ لو أن جهوداً بذلت من المساجد والقيمين عليها لتخليص نفسها من عادات ليست ضرورية للإسلام، فإن المسلمين الجدد سيشعرون بالأمان والطمأنينة للأسلوب الجديد في التدين، فعليهم أن يحرروا الدين من عبء قرون مضت من الزمن، وعلى المسلمين أن يتذكروا أنهم يسلمون أنفسهم لله وليس للجالية.

إننا ننقسم وعلينا أن نتوحد:

يقول القرآن في سورة آل عمران:

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: 103].

ـ ويقول النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**».

ـ موضوع وحدة المسلمين يتكرر في المؤتمرات الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية، ومن أهم أسباب التفرقة هي: التحامل العرقي، وإبعاد المسلمين عن المسجد، وعزل النساء.

ـ وعلينا أن نهتم بهاتين القضيتين:

إن التباين بين ثقافة المسجد والفكر العام السائد يمثل قضية جوهرية لدى

قطاع كبير من المسلمين، ويرى هؤلاء أن الجالية الإسلامية تشدد على التقاليد المتطرفة وتقيِّد الفكر والكلام، ويقول الشباب المسلم أن اللاهوت الإسلامي التقليدي كما هو مطروح الآن في المسجد لا يمكن الثقة به لأنه يعتمد على تفسيرات للقرآن والسنة النبوية قديمة جداً وهي تتبناها دون تدقيق أو تحقيق، وهذا ما أدى إلى خروج الجيل الثاني بأعداد كبيرة من المجتمع الإسلامي.

ومن المحزن أن الذين اعتنقوا الإسلام من الأفارقة السود قد قبلوا المعتقدات والممارسات التقليدية القديمة مما جعل من المسلمين الآخرين ممن نشؤوا في المجتمع الأمريكي من الذين لا يقبلون المعتقدات والعادات المشكوك فيها أن يبتعدوا عن المسلمين الأفارقة وإذا لم يحدث تدخل إلهي لحل هذه المشكلة فإن مستقبل المسلمين في أمريكا يجعلنا نشعر باليأس والإحباط.

ماذا يمكننا أن ن قوم به؟

أقترح على المسلمين في أمريكا أن يركِّزوا على المعتقدات الأساسية للإسلام، مثل:

ـ الإيمان بالله الواحد الأحد، وبرسوله محمد، بالصلوات الخمس، وصيام شهر رمضان، ودفع الزكاة، وتحريم لحم الخنزير، وتحريم الزنا، وأن على المسلم أن لا يلغي أو يحذف أياً من قائمة المعتقدات الجوهرية للإسلام، وأن على المسلمين أن يكونوا حذرين من الإصرار على ما ليس ضرورياً حتى لا تصبح الحقيقة غامضة على من يريد أني صبح مسلماً ملتزماً بدينه، وعلى من يريد أن يعتنق الإسلام.

ـ وعلى المسلمين أيضاً أن لا ينفِّروا الناس من الدين بإدخالهم أموراً غير مطلوبة، وأنه يجب اتباعها بحذافيرها لأنه إذا أدخلنا في الدين ما ليس فيه نكون قد افترينا على الله بالكذب كما يقول القرآن:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النمل: 116].

ـ إن تقديس التراث الذي لا يدعمه الوحي هو اصرار من المعاندين لأنهم يفضلون التراث على القرآن فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: 168 ـ 170].

ـ عندما اعتنقت الإسلام منذ أكثر من إحدى وعشرين سنة، وقد التقيت بالكثير من المسلمين، كان معظمهم يتحدّث إليَّ عن خصوصيات وأقاويل يعدُّها جزءاً من الدين، وكنت أرتاب مما يقال لي، ولكني حينذاك لم أكن أمتلك الوسيلة والمعرفة لأجيب.

ـ قيل لي في مناسبات عديدة: أن عليَّ أن أرتدي ملابس شرق أوسطية، وأن لا أسمع موسيقى، وأن آكل بيدي ولا أستخدم أدوات الطعام، وأن لا يكون عندي تلفاز وأن أعمل على إسقاط الحكومة الأمريكية عندما تتاح لي الفرصة، وأن على المرأة أن لا تخرج من بيتها إلا بإذن زوجها، وأن لا تصوّت في الانتخابات ولا يجوز لها العمل في الخارج، وأن لا تقود سيارة، وأن الديمقراطية حرام وأن المدنيين مسموح قتلهم أثناء الجهاد، وأشياء أخرى كلها مدعومة ببراهين واهية غير مقنعة، ولو لم أكن قد أخذت ديني عن القرآن، ولو اعتبرت أن هذه الإدعاءات تعبّر عن الإسلام لكنت تركت الدين بالتأكيد، وعلى الرغم من سهولة كشف هذه الأقوال وضعفها لكن على كل من يدخل الإسلام، أن يقضي الكثير من الوقت وبذل الجهد ليغرق في الدراسات للتحقق من كل ما سمعه باسم الإسلام وسيحدث عن الغالبية انطباع سلبي وربما يرى أن الإسلام ديناً مضحكاً، وخاصة أن التحيز ضد الإسلام والتحامل عليه منتشر وعميق في الجذور في امريكا.

ـ لنأخذ مثلاً: ممارسة عزل النساء عند الكثير من المسلمين ليس لها في القرآن أو الحديث النبوي الصحيح أي دليل، وهذا العزل لم يمارس في مرحلة

من مراحل البعثة النبوية أو في عهد الصحابة، بل هناك أدلَّة ملموسة على عكس ذلك.

إن الكثير من المسلمين الأمريكيين يتنازعون على أمور سطحية تؤدي إلى التنازع والتلاعن فيما بينهم، فقد أسقطوا جمعية إسلامية من حسابهم لأنهم اختلفوا معها في ابتداء حلول شهر رمضان.

وعندما كنت في كاليفورنيا سمعت أن مسجداً يلقب بمسجد «الكافر» لأن بعض المعلمات في مدرسة الأحد الإسلامية لم يرتدين على رؤوسهن الغطاء، وأن فيه اختلاط بين النساء والرجال.

كانت هذه الاختلافات التافهة تقود المسلمين عبر التاريخ إلى الإنقسام والحروب الأهلية وسببها تشدد أحد الفريقين.

الإيمان، العقل، المستقبل

إنني لا أتحدث عن أزمة وشيكة، بل عن أزمة موجودة وتزداد خطراً، وهي أن معظم المسلمين نادراً ما يشاهدون في المساجد أو في المواقع الإسلامية الأخرين وخاصة الشباب وصغار السن.

وهناك ملاحظة يجب أن ننتبه لها وهي أن المسلمين إذا لم يذهبوا إلى المساجد في بلادهم الإسلامية، فهم لن يتركوا الإسلام بأكمله لأن الثقافة والبيئة المحيطة بهم تشكل عامل مؤثر كبير في الحفاظ على دينهم، أما في أمريكا فذلك يؤدي إلى ترك الإسلام كليّاً ويبقى المسلمون بالإسم فقط، وأن فرصة أن يتعرَّف أبناؤهم على الدين ضئيلة جداً.

إنني أعلم أن الله قادر على رفع شأن المسلمين عندما يشاء، ولكن ذلك لا يعفي المؤمنين من القيام بعمل ما ليحافظوا على دينهم ودين أبنائهم، ويقول القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: 6].

ـ إن التقاليد والدين ممزوجان بصورة متداخلة في بلاد المسلمين، والأعراف متجذرة راسخة شاملة للجميع مقدَّسة مروِّعة بحيث لا يستطيع أحد إهمالها علنا حتى لو كان لا يؤمن بها، لأن إهمالها يجلب له العار ولأسرته، ولكن أمريكا مجتمع غير تقليدي، له الحرية الكاملة في الفكر والممارسة.

ـ الصراع بين المسلمين هو بين العقل والإيمان، وسبب انسحاب المسلمين

من الدين مشكلة فكرية وعدم خضوع للتقاليد التي لا تتلاءم مع العقل والفكر.

هذا ما حصل عند المسيحيين عندما قامت الحركة الإنجيلية البروتستانتية المسيحية الناجحة التي عملت على التخلي عن المفهوم الكنسي القديم.

ـ نرى اليوم بعض المسلمين يميلون إلى الصوفية بحثاً عن الدعم الباطني والروحي، والسبب أن الكثير من التقاليد الإسلامية تبدو لهم غير صحيحة، وهم عاجزون عن الانتماء إليها، وتبدو في نظرهم غريبة وخارجة عن زمانها وغير معقولة. إذن لا بد من إعادة تقويم وفحص نقدي متقن للفكر والممارسات الإسلامية التقليدية، من أجل أن تصبح هذه التعاليم ملائمة لعصرنا، وليست الغاية هي نبذ التراث كلياً، ولكن تصفيته مما هو صحيح وواقعي وبين ما هو خرافي لا يقبله العقل.

ـ كان الفلاسفة المسلمين القدماء يعتقدون أن الإيمان يأتي عن طريق العقل وحده، ولكني لا اؤيد هذا الرأي، لأن العقل له دوراً جوهرياً، ولكن تجربتي بيَّنت لي أن هناك عناصر كثيرة ترافق العقل. رتَّبها الله بشكل رائع وتعمل من أجل التطور الروحي وهي: العاطفة والإلهام الفطري، والوحي الإلهي والعقل هو عنصر أساسي فيها.

ـ عندما قرأت القرآن لأول مرَّة وقد دفعني إلى قراءته الفضول الفكري وحب الإطلاع، وقد وقعت دون أن أدري في الصنَّارة عقلياً وعاطفياً.

ـ كانت الحواجز التي أقمتها بيني وبين الله، قد أخذت بالإنهيار تدريجياً بحيث أصبحتُ منفتحاً على احتمال وجود الله، وكلما كنت أصرح بالتساؤلات، كانت الرحمة الإلهية تخترق ما تبقى لديَّ من مقاومة، وتعيد إحياء نفسي التي نبذتها منذ سنين خلت، وأخيراً صرخت وأمسكت العقيدة التي هي ليست أ حكام فقط بل الحب ينساب معها إلى قلبي الذي كنت لا أشعر به من سنين.

وهكذا لم يكن الذي قادني هو عقلي فقط ولكن عاطفتي أيضاً، ولهذا فإني أرى أن الدين هو عقل وإيمان ينسجمان ويتلازمان، العقل يفتش عن الحقائق

ويجعلنا نتجنَّب الأخطاء ويصححها، والعاطفة القلبية التي يمنحها الله لنا عندما نكون صادقين في البحث عن الحقيقة.

ـ بعد أن قرأت القرآن، ظننت أن المجتمع الإسلامي الذي سأدخله يعتمد على العقل والتحقيق في قضايا الإيمان، ولكن المسلمين الذين التقيتهم في ذلك الوقت لم يكن لديهم بحث وتنوير، كانوا محدودوا التعليم الديني، وكنت متأكداً أنني عندما ألتقي بمسلمين أكثر تعلُّماً وثقافة سوف يؤثرون فيَّ بمنطقهم وموضوعيتهم وأسلوبهم الفلسفي، ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى تبيَّن لي أني كنت مخطئاً تماماً، ولم التقِ بأي مسلم يسعى إلى تحليل المفهوم الإنساني والإيماني عن طريق[1] العقل، وأكثر من ذلك فهم يبدون امتعاضاً من التأمل العقلي مثل الفلسفة، والمنطق أو حتى العقل وسمعت كثيراً بعض آراء بعض المفكرين المسلمين فإنهم يزدرون الفلسفة ويحذرون منها، وبعضهم قال لي: عليك أن تبتعد عن الفلسفة والجدل حتى وإن كان دفاعاً عن الدين.

وعندما كنت أحاضر وأطرح أسباب اعتراضي على وجود الله، طالبوني بعدم الاستمرار، لأن مجرد التفكير في هذه الأمور حرام في نظرهم، وكانوا يعتبرون أن كل الشكوك حرام في نظرهم.

وبعد مدَّة أجريت نقاشاً مع أحد الزعماء المحليين حول معاملة النساء في الجالية الإسلامية، وعندما ظهر له أن حجتي كانت أقوى في الحوار، صاح بي قائلاً ليس هناك أي تعليل منطقي أو فلسفي في الإسلام، علينا فقط البحث في التفسير.

ـ إن طرح الأسئلة حول القواعد المتَّبعة في المجتمع الإسلامي تثير الرعب عند المسلمين، وقد قال لي طبيب جرّاح من الشرق الأوسط مسلم، وكان الحديث معه عن دور العقل، قال: يا أخي حسناً إن قادك العقل إلى الإسلام، أما وقد صرت مسلماً فعليك اتباع ما يقوله علماء الإسلام، فأجبته: لو كنت

---

(1) لاحظت أن الشيعة يؤمنون بالعقل ودوره المهم في الدين.

سأفعل ذلك لكنت استبدلت شكلاً من أشكال الجهل بشكل آخر، والمدافعون عن المعتقدات السائدةن يصرون غالباً على أنهم متمسكون بالقرآن والسنَّة، وهم يدعمون موقفهم بالحديث والقياس، وإذا بدا لهم أن الحوار سيُضعف ما هو مألوف عندهم يقولون لك: أنك غاليت في استخدام العقل، ويعتبرون أن العقل مقبول ما دام أنه لم يتحدى العُرف إن هذا القلق الجماعي المسيطر على المسلمين لا أساس له في القرآن، ولكن الصراعات السياسية التي نشأت في عهد الأمويين تحوّلت إلى صراعات دينية لأن جعل الحكام الأمويين سيطرتهم على السلطة بأنها قضاء وقدراً إلهياً، فصار البعض يرد عليهم بأن هذا التعليل غير منطقي وغير عقلاني وأن العقيدة الإسلامية تتالف من عنصرين هما: العقل والإيمان وسميت هذه الفرقة با لمعتزلة وهم من أهل الكلام وقد نشأت في القرن الثاني للهجرة، وكان للفلسفة اليونانية تأثير على الفكر المعتزلي.

يقول المعتزلة أن الله عادل ولا يمكن أن يحاسب البشر على أعمال لم يقوموا بها وإنما فرضت عليهم ويعني هذا استبعاد عقيدة القضاء والقدر التي أشاعها الأمويون، واعتبر أهل السنة والجماعة أن موقف المعتزلة هو هرطقة.

حصل هذا الصراع الفكري بين الأمويين وبعض الحكام العباسيين من الذين تبنّوا الفكر المعتزلي مثل المأمون والمعتصم والواقف حتى السنة الثانية من عهد المتوكل، الذي عاد وانقلب عن هذا الفكر، وكان المتوكل شارباً للخمر فاسقاً قاسي القلب لا يرحم، ويقول عنه بعض المؤرخين أنه لا يصحّ أن يكون خليفة لله على الأرض، ولكن بعد ذلك غرقت الدولة العباسية بالفساد والظلم، وقامت بسبب ذلك ثورات كبيرة وتنازعت الأعراق القومية فيما بينها، وقتل الأتراك المتوكل في فناء قصره بالتواطؤ مع ابنه.

وكان المتوكل قد ألغى عقيدة المعتزلة، وسجن زعمائهم وشنَّ حملة على الشيعة فهدم قبر الحسين بن علي حفيد الرسول، وامر برسم صور شياطين على أبوابهم لتُعرف وتختلف عن بقية بيوت المسلمين.

واليوم لا يعلم المسلمون إلا القليل عن المعتزلة ويظنون أنهم كانوا

هراطقة، ولكن أصداء الصراع المرير من أجل الهيمنة الدينية وكراهية البحث العقلي ما زالت تتردد في المجتمع الإسلامي خاصة عندما تتحدى الفكر التفليدي.

لقد طوى النسيان معظم النقاط الفكرية التي جرى الجدال حولها، وقد فقدت صلتها بالدين ولكن الشك باستعمال العقل ما زال قائماً.

ـ القرآن لم يبدِ أي تحفظ على استخدام العقل، بل بالعكس فهو يحث على استعمال العقل بآيات عديدة و الابتعاد عن الظن واتباع الهوى وعدم التشبُّث بالتقاليد وما أُلِفت عليه الآباء، ويقول القرآن:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170].

ـ إني أتساءل كيف وقع المسلمون الذين قادوا العالم ذات يوم في ميادين العلم والتكنولوجيا والقوة العسكرية وكانوا أ مناء على الوحي الإلهي الأخير، وأصبحوا اليوم في هذه المذلَّة.

ـ من التعليلات التي يقولوها:

ـ أن كثيراً من المسلمين أهملوا واجباتهم الدينية وشعائرهم أو أنهم لم ينجحوا في تطبيق الشريعة الإسلامية أو أنهم ضالون عن السُّنة النبوية، وأنهم محكومون بحكام طغاة دكتاتوريين.

ـ أنا لا أستبعد هذه الاحتمالات، ولكن أعتقد أن صميم المشكلة هي: برفض تقويم التراث الديني الهائل من العادات والأحاديث الغير واقعية من الأسلاف، وأعتقد أن المسلمين قد شكوّا بأنفسهم فكرياً، لأن الفكر الذي ورثوه هو نوع من المعلبات الفكرية التي تحجب الحقائق ولا يجب الاقتراب منها. وأعتقد أن الأمر لا يحتاج إلا إلى القليل من الأفراد الباحثين الذين يهتمون بمستقبل هذا الدين، فيناقشون هذه المسائل ويقومون بالنقد ودراسة التاريخ.

ـ اليوم يوجد مجموعة من النشطاء المسلمين الأمريكيين من الشباب المدركين لمشاكل الأمة ويسعون بحماس لإيجاد حلول لها.

توضيحات للصراع وأسئلة

السؤال الأول: من أميركية اعتنقت الإسلام، وتتعلق رسالتها بالحجاب، تقول:

اعتنقت الإسلام منذ بضع سنين، والواقع أني أجاهد نفسي بسبب الحجاب، وأنا أؤمن به وأرى أن ارتداؤه يحرِّر المرأة المسلمة، ويقوى إيمانها، وأنا معجبة جداً بشجاعة المحجبات، حاولت ارتداء الحجاب مدَّة سنة ولكن لسوء الحظ كان مؤلماً تماماً لي، إذ صرت أتلقى النظرات الغاضبة من الناس وعاملوني كأجنبية لا تعرف الإنكليزية، وواجهتني المضايقات، وكان على أطفالي أن يتحمَّلوا المضايقات أيضاً عند ذهابهم إلى المدرسة وفي عودتهم منها، وأشعر الآن أن ثقتي بنفسي قد ضعفت وزاد وزني، تابعت الصلاة والدعاء بأن يمنحني الله القوَّة، ولكني صرت أكثر اكتئاباً، وبعد أن أقلعت عن تغطية رأسي تحسنت حالتي، ولكني أعلم أن ذلك دليل على ضعف إيماني، وفقدت غالبية صديقاتي في الجالية الإسلامية.

إني أطلب النصح، فهل تعتقد أن عليَّ ارتداء الحجاب ثانية؟

الجواب: يبدو لي أنك مقتنعة بأن على المرأة المسلمة أن تغطي شعرها، لذلك سأحاول أن أقارب سؤالك من هذه الناحية.

تدل رسالتك على أن ارتداء الحجاب كان صعباً عليك، إن ارتداء الحجاب في أمريكا صعب جداً، خصوصاً للأمريكيات اللواتي اعتنقن الإسلام، لأن رد

فعل المجتمع تجاه غير الامريكية أكثر مرونة خصوصاً بعد 11 سبتمبر 2001، وعلى الرغم من أن زوجتي غير أمريكية فقد توقفت عن ارتداء الحجاب لأن تلك الحقبة كانت مرعبة، ففي عام 1992، هجم شخص سكران متعصب مخبول على زوجتي وهي في سيارتها بعد أن طاردها في شوارع لورنس الشرقية، وصرخ فيها مهدداً شاتماً بأوصاف عنصرية عرقية، وضر ب بعنف سقف سيارتها ونوافذها بقبضته، استمر بضع دقائق، والناس في المنطقة يشاهدون الحدث، ولم يهبّ أحد لمساعدتها جلَسَت خلال ذلك تبكي وتتضرع على الله أن ينجيها، كان ذلك الحادث هو القشة الأخيرة في سلسلة أحداث طويلة مؤلمة حصلت لها.

ـ أنا لست مؤهلاً لتقديم نصيحة من هذا النوع، حتى أني لم أنصح زوجتي أبداً بشأن الطريقة التي يجب أن تسلكها بحجابها، ولكن إذا كان الأمر صعباً ومؤلماً لك جداً فيمكن أن لا تغطي شعرك وأرجئي ذلك إلى وقت آخر فيما بعد.

بما أن المسلمون أقلية، فهناك عدد من التعليمات الدينية التي لا يستطيع المسلمون تطبيقها بصورة فعَّالة في الولايات المتحدة الأمريكية، فإن كنت ترين أن الحجاب يشكل عبئاً لا تستطيعين تحمله، فإن ذلك لا يقلل ولا ينقص من دينك. ويقول القرآن في سورة البقرة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ـ إن اعتناق دين ما عندما يكون في مرحلة الأقلية الدنيا، يتخذ شكلاً عميقاً من الإيمان، لا تضرَّ به بعض المظاهر الخارجية، وأستطيع أن أنصحك بأن تعملي في الجوانب الأخرى من دينك لتشعري بما فيه الكفاية من الثقة بنفسك وبدينك كي تعودي مرة ثانية إلى لبس الحجاب وهناك أنواع كثيرة من الحجاب غير التقليدي، يمكن أن يجعل المرأة تتطابق مع المشهد النسائي الأمريكي، مع محافظتها على كونها امرأة مسلمة متواضعة ومثقفة.

السؤال الثالث: من شابة أمريكية مهاجرة مسلمة تجاهد من أجل أن تجد سلاماً فكرياً وروحياً في دينها الموروث، وهذا ما يعاني منه معظم الشباب الأمريكي المسلم.

فتقول: في الواقع أني كلما دخلت في المسموحات والمحظورات التي يفرضها ديننا ازددت بعداً عن الله، حتى الصلاة لم تشعرني بالسلم فصرت ادعوا إلى الله أن يهديني ويرشدني إلى صراطه، والآن توقفت عن الصلاة وعن دراسة الإسلام، وقد أجريت حديثاً مع إمامي وهو بدوره قد صدَّني، ولكن ما زال لديَّ صراع بشأن الدين إني أسألك يا دكتور لانغ، لماذا الله لا يهدي بعضنا مع أننا نتضرع إليه كي يدخل الإيمان قلوبنا؟

الجواب: من الصعب الإجابة على سؤال كهذا، فهو يكشف عن مشاعر عميقة بالعجز والمسؤولية، فلا يمكن تحليل شيء شخصي جداً وغير ملموس وباطني. الشخصية البشرية بحد ذاتها غامضة لا يُسبر لها غور فما بالك بالطبيعة الإلهية، والتواصل فيما بينهما؟ ليست المشكلة تشخيص للسمنة مثلاً ووضع حل لها بوضع برنامج غذائي.

الله لا يخضع لصياغاتنا وقواعدنا، بل نحن الذين نخضع لقوانينه، ولكن بما أن عندكِ شوق وتوق للهداية فإن هناك أمل للعلاج السريع.

المشاعر الروحية متداخلة مع مفاهيم الإنسان عن الحياة بحيث تتأثر بالتقاليد والتعاليم التي تعرَّضنا لها وبأنماط الحياة التي عشناها.

الأمر يحتاج إلى إعادة توجيه، وكل ما أستطيع تقديمه من النصيحة المبنية على الخبرة، والله يهدي من يشاء ولكنه يفعل ذلك من خلال ما نضع من حدود عالية قد تشعرنا بالعجز، فعلينا أن لا تكون توقعاتنا عالية جداً بحيث يعدو ما نصبو إليه صعباً ونادراً، وعلينا أن نحدِّد المشاعر الباطنية وهي تختلف من شخص لآخر.

على كل حال، علينا أن نعلم أن الجهد من أجل الروحانية هو جزء من طبيعتنا البشرية، وكلنا يشعر بهذه المشاعر الروحانية من وقت لآخرن قليلاً أو كثيراً، وقد تكون في وقت ما، بتحريض ما.

كما يكون لدينا القدرة على محبة غير الله، فمن المؤكد أن لنا القدرة على تحريك روحانيتنا وإثارتها بوسائل غير دينية، لقد واجهت الكثير من العابدين الذين يذكر بعضهم أن الملائكة تتنزل عليهم، وآخرين يشعرون كأن الله غمرهم بحبه ورحمته، وآخر يشعر بالدفء يشع من داخله، ومن الأوصاف الشائعة الذين يشعرون بالقشعريرة في أبدانهم، وقد تكون لحظات أو ثوان، والأغلب أنها فترات قصيرة تتراوح بين الشدة والضعف ومنهم من قال أن هذه اللحظات لم تتكرر كثيراً، وأنها نادرة، ومعظم العابدين قالوا أنهم لا يشعرون بأي لحظات روحية أثناء الصلاة، ولكن أحياناً يشعرون بها خارج الصلاة كسماع شعر مؤثر أو مشهد طبيعي.

وقد يشعر بهذه اللحظات الروحية غير المتدين.

ـ تنمو الروحانية كلما ازداد نمونا بالصفات الإلهية وبسلوكنا ومحبتنا للآخرين والتعاطف معهم، وتقول الآية:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: 1 ـ 7].

ـ هذه الآيات تدل على تلازم الصلاة والزكاة والعمل الصالح في القرآن هو الأساس، وأن الإيمان يتعزَّز بالصدقات وإعانة المحتاجين، فيصبح المؤمن أكثر روحانية وإيماناً، فالصلاة والزكاة ليستا عملاً تطوعياً وتضحية ذاتية، بل هما مفروضتان ومنظمتان بدقة، وهذا هو الحد الأدنى المطلوب من المؤمن، الذي عليه أن يدرب نفسه للقيام بهما، كما يمارس الرياضي الحد الأدنى من التمارين، أو كما ينبغي للطالب أن يؤدي الحد الأدنى من الواجبات المدرسية.

إن النمو في الفضيلة هو تدريب شخصي ويتطلب عزيمةً وانضباطاً، ويتطلب استمراراً لممارسة الشعائر الإسلامية لأن الرغبة في طاعة الله تنمي العلاقة الروحانية معه وترفع من مستوى أداء المؤمن، كما الرياضيون هم بحاجة دائمة

للتدريب لرفع أدائهم، ومع ذلك فإن الله لا يطلب الكمال من المؤمن، ولكن يحب التشرب بمحبة الله شيئاً فشيئاً.

وهناك صفة تليِّن القلب، وهي التواضع والخشوع فيصبح المؤمن أكثر استعداداً لتلقي نور الله، ويبتعد عن قسوة القلب: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: 1 ـ 2] رغم أن التواضع والخشوع يتعارضان مع الثقافة الأمريكية، ولكنهما رمز المسلم وسجيته المناسبة وهذه الوقفة الحقيقية بحب وتواضع وخشوع أمام الله في الصلاة، هي التي تنمي العلاقة مع الله منبع الحقيقة ومصدرها: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: 45].

سمعت بأشخاص اعتنقوا الإسلامن وقد قلب حياتهم كليّاً وتخلَّصوا من مساوئهم السابقة منذ أن نطقوا الشهادة، ولسوء الحظ لم أكن أنا مثالاً موحياً، إذ كنت بعض الاوقات أخوض صراعاً صعباً لإصلاح نفسي، وقد جاهدت جهاداً مريراً في تلك الفترة التي تلت اعتناقي الإسلام ضد عادات سيئة كانت متأصلة في نفسي، وعانيت من نكسات لدرجة أن صلواتي الخمس كانت مبلّلة بدموعي وأنا أدعوا الله لكي يساعدني وقد عرفت بكل ذرَّة من كياني حقيقة ضعفي، ولكن مرَّت عليَّ خبرات عديدة كانت تثير مشاعري الروحية وشوقي إلى الله لا أعلم لماذا منَّ الله عليَّ بتلك اللحظات الروحية الشديدة، ولكني أعلم أني صليت بكل خشوع وندم رغم أن تلاوتي للقرآن أثناء الصلاة كانت قصيرة وغير دقيقة، ولكني كنت أفرغ قلبي ندماً وتوبة.

وقد مرَّت عليَّ فترات طويلة لم أشعر بقرب الله، وكنت أثناءها أشعر بحالة من الفزع وكنت أتساءل لماذا انسحب الله مني؟ وعدت اتضرع إليه أن يجعلني بعناق رحمته ثانية لأشعر بالطمأنينة، ولكن رغم توسلي الملحّ ظلَّت صلواتي غريبة، ولكني وجدت العزاء بقراءة بعض التفسيرات لهذه الحالة، وهي أن الله يحب أن يسمع صوت عبده المؤمن داعياً متوسلاً، وهي حالة من الصلة مع الله، وهو يجيب الدعاء ولكن نحن نكون غافلين عن ذلك في كثير من الأحيان. ﴿وَإِذَا

سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186].

ـ إن الصلاة اليومية في أوقات محدّدة، اعتبرها رياضة يومية روحية وفرصة لأخرج نفسي بضع دقائق من الفوضى والتوتر الناجم عن متابعة الأمور الدنيوية الزائلة كي أعيد وأذكر نفسي بغاية الحياة الحقيقية التي يجب أن نسعى للوصول إليهان وأننا نحن بحاجة إلى التواصل مع الله ليهدينا ويثبتنا على الطريق الصحيح.

ـ بدأت ابنتي الكبرى وهي الآن في السابعة عشرة من عمرها، تشكو من الصلاة، وترى أنها جافة ولا معنى لها ثم تركتها كلياً، وقد تباحثت معها في الأمر وقدمت لها بعض الاقتراحات، وكانت تقول أنها لا تفهم ما تقوله أثناء الصلاة بالعربية من الآيات القرآنية، وتشعر أنها مثل الببغاء تردد شيئاً لا تفهمه، اقترحت عليها أن تصلي بالإنكليزية لفترة من الزمن لترى إن كان هناك فرق، وأن تتعلم المعنى كلمة كلمة، وإني أنا وزوجتي نساعدها وصرت أشاركها وأنا أتلو الآيات بالعربية، وأتبعها بالترجمة بالإنكليزية، وكانت تشكو بأن خمس صلوات من الصعب أن تؤديها كل يوم، فنصحتها أن تبدأ بنظام مريح مثل أداء فريضة المغرب فقط كل يوم أو أي فريضة أخرى كالظهر والعصر وأن تواظب على ذلك، ثم ترفع المستوى عندما تشعر أنها جاهزة لذلك، وقلت لابنتي أن بعض الناس يحبطون في عبادتهم بسبب الآثام والذنوب التي ارتكبوها في الماضي، في هذه الحالة عليهم أن يخبروا الله أثناء صلواتهم ويطلبوا مساعدته وعفوه، المهم أن يثقوا بأن الله سيساعدهم إن كانوا مخلصين في دعائهم وتضرعهم إليه.

ونصحتها أن تكون معظم صلاتها للتعبير عن نفسها أمام الله وأن تخبره بمخاوفها وآمالها ومشاكلها، وأن تطلب منه العون والهداية وأن تصلي وتدعو من قلبها، فالصلاة تكون رتيبة، عندما تجعلها رتيبة لأننا نقوم بها بشكل طقوسي وشكلي جداً، علينا أن نكلم الله من قلوبنا حتى لو بكلمات قليلة في كل صلاة. وقد اكتشفت أن ابنتي كانت تخاف من الله خوفاً مرعباً وقد تشرَّبت هذا الشعور من الجالية الإسامية عندما كانت صغيرة في طور النمو، فطلبت منها أن تعيد

توجيه تفكيرها بشأن الله، وأن تذكر نفسها بالآيات العديدة التي تقول أن الله غفور رحيم، وأنه لا يطلب الكمال منا، وأن الله نزَّل القرآن على شعب جاهل كانوا يحاربون الحق ويحبون الباطل، لذلك كان يهددهم ويحذِّرهم، أما المؤمنين المسالمين فإن الله يحبهم ويطمئنهم، وأنها فتاة طيبة لا يمكن أن يعذبها الله، والقرآن يخبرنا أن الله سيعذب الأشرار والظالمين والمجرمين.

لقد تركت ابنتي وشأنها فترة من الزمن، ولم أعد أراقب تقدمها لأنني شعرت أن من المهم أن تعود إلى صلاتها بمبادرة منها من أجل علاقتها مع الله وبعد مدَّة سألت زوجتي عنها فقالت أنها تصلي بانتظام، بعد ذلك بأسابيع سألت ابنتي إن كانت جنَت شيئاً من صلاتها، فقالت أنها تشعر بالسلام والطمأنينة بعد أدائها كل صلاة، وأنها أصبحت قريبة من الله أكثر.

السؤال الرابع:

شاب في الثلاثين من عمره يسأل عن الآية 34 من سورة النساء بشأن ضرب الزوجة، يقول:

إنني مهتم بمعرفة موقفك من هذه المسألة، وكان عدد كبير من المسلمين الأمريكيين الجدد مهتمين بقضية المرأة، وهذا الموضوع هو الأكثر سخونة، وهو ضرب الزوجة.

الجواب:

هذه القضية من أصعب القضايا الشرعية الإسلامية التي تأملت فيها منذ اعتناقي الإسلام، والحق أقول: أنني لم أ نتبه لهذه الآية عندما قرأت القرآن أول مرّ، أو ربما اختار المترجم كلمة غامضة ولو أني قرأت هذه الترجمة المذكورة من قبل، لوضعت القرآن جانباً وتخليت عن فكرة البحث كله، ولكني كنت مهتماً بما يقوله القرآن عن معنى الحياة، وهذه الآية لا تتعلق مباشرة بهذه القضية. وبعد أن اقتنعت بوجود الله، وبأن القرآن منزّل من عنده لم تعد حيرتي بأية آية تهز إيماني بل صرت أرى من واجبي التفاهم معها، وأنا متأكد بأن الكثيرين ممن

يعيشون في بيوت يسودها الوئام والحب لن ينظروا إلى هذه الآية من سورة النساء، ويعتبروها بطاقة دعوة تُحوِّل الرجال أن يضربوا نساءهم وهم سيرضون بما رآه علماء المسلمون القدامى والجدد الذين يقولون أن هذا الإذن هو رمزي في جوهره، وأنه لا يستغل هذه الآية ويفسرها على ظاهرها إلا من كان متوحشاً ويحب السيطرة على زوجته بالعنف.

ولكني سأبحث عن هذه القضية تعاطفاً مع من ينظرون إلى ذلك باستغراب شديد، وسأنظر إلى هذه الآية من زوايا مختلفة.

وهذا هو نص الآية: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: 34].

فسَّر العلماء النشوز أي التنافر والعدوانية والمعنى الأشمل هو الكراهية.

ومعنى الكلمة «ضرب» في القواميس، هي: قرع، صفع، عزف، فصل، افتراق، ابتعاد، تحاشي، إهمال، تجاهل.

ويقول المفسرون أن هذه الآية من سورة النساء تتخذ سلسلة خطوات تدريجية للزوج الذي يريد أن ينقذ حياته الزوجية مع امرأة تكرهه في البداية ينصح زوجته ويحذرها ثم يهجرها في الفراش فترة من الزمن فإذا أخفق، فعليه أن يقرّعها، ثم يؤتى بحكَم من أهلها وحكم من أهله للمساعدة في إصلاح ذات البين، فلو افترضنا أن معنى «اضربوا» أي ابتعدوا فإن الخطوات التي ذكرت فهي تتفق مع هذا المعنى إذا لم تستفد الزوجة من هذه التحذيرات.

إن التفسير اللغوي لآية النساء إحداها الضرب ولكن المسلمين في العصر الحاضر يفضلون التفاسير الأخرى غير الضرب، أي الابتعاد والطلاق، ويدعم هذا التفسير الأحاديث النبوية الصحيحة التي تُحرِّم الضرب، وعلينا أن نذكر أن الحضارة التي خضعت لحكم المسلمين في القرنين الأولين، كان وضع المرأة

أدنى من الرجال، فكان الزوج يتعامل مع زوجته كأحد أولاده، لأن المرأة كانت تتزوج في سن صغيرة وكانت مهمتها في المجتمع محصورة بالحمل وتربية الأطفال وإشباع حاجة الرجل الجنسية، وفي هكذا حالة فإن الزوجة تكون كأحد أولاده يرعاها ويتحمل مسؤوليتها وقبل الإسلام كان الرجل يستطيع الحصول على عدد غير محدد من النساء.

أنا شخصياً أميل إلى تفسير كلمة اضربوهن أي ابتعدوا عنهن وفارقوهن.

رسائل وتعليقات

التعليق (1)

من طالبة جامعية مسلمة أميركية من الجيل الثاني، تشكو من معاملة النساء في المجتمع الإسلامي الأمريكي، فتقول:

ـ إني أقيم في مدينة «أيوا»، منذ خمس سنوات أصبح المسجد في قبضة ثلة من السلفيين المتشددين، والنساء المسلمات يشعرن بالإحباط من نظام المسجد بأكمله، فنحن لا نستطيع أن نصوِّت لاختيار الإمام، ولا يسمحوا لنا بوجود ميكرفون في الطابق المخصص للنساء، وفي شهر رمضان لا يسمح لنا بالدخول إلى غرفة الطعام للإفطار بل يرسلوا لنا أطباق على عددنا بدون أي شيء آخر. لم أتخيل أبداً أن يحدث مثل هذا في أمريكا، ويقولون لنا أن غير المسلمين كفار لا علاقة لنا بهم من بعيد أو قريب.

منذ بضعة أسابيع حاولنا مع بعض صديقاتي استخدام المكتبة للدراسة ولكنهم أمرونا بالمغادرة ووضعوا قفلاً على الباب، مع العلم أنه لم يدخل المكتبة أحد من الإخوة الرجال، وشعرنا كأن طالبان تحكمنا وأنهم لا يريدون من النساء أن تتثقف أو تتعلم.

وعندما أرادت إحدى الأخوات أن تعقد حلقة دراسة لأخوات أمريكيات قيل لنا: لا يمكن أن تظهر آراء مختلفة عن آراء المسجد، وأجروا لها امتحان فأخفقت في الامتحان السلفي، حتى الشيعة طُردوا من المسجد لأنهم يعتبروهم

تهديداً، وبدلاً من محاورتهم ومناقشتهم سلكوا معهم سلوك الجبناء وطردوهم من المسجد وقالوا لهم لا تعودوا إلى المسجد حتى تؤمنوا بما يؤمن به قادة المسجد.

إني أرى أن هذه دكتاتورية طاغية، وعندما أرادت إحدى الفتيات أن تعتنق الإسلام حديثاً طلب الإمام أ ن تكلمه من وراء الجدار.

هذه الإشكالات أزعجت الأخوات المسلمات الأمريكيات، فهن لم يتعودن على مثل هذه المعاملة، لقد تعلمنا في مجتمعنا أن نحلل ونتأمل ولا نقبل ما يقال لنا على علاته فأنا أدرس الحقوق ويجب أن أكون موضوعية وناقدة. إن هذا التعامل يكشف عن صدام حضارات.

وقد تمردنا على هذه التصرفات لأننا نريد أن نأخذ حقوقنا، وقد حاولوا أن يطردونا بالقوة، وقالوا إننا نقوم بالفتنة، ولكن أصرينا أن هذا كفاح من أجل استرداد الحقوق.

التعليق (2):

هذا التعليق هو من مجموعة ن ساء مسلمات من الجامعة التي تدرس فيها صاحبة التعليق السابق، وقد بدأن ينظمن أنفسهن للقيام بدور حضاري غير الأدوار التقليدية للمرأة في المجتمع الإسلامي.

ـ الأخوة، الأخوات، الأصدقاء:

نسعى أن نبدا سنتنا الجديدة بإصلاحات لمسجدنا للحصول على حقوق متساوية للجميع إن عملنا معاً نستطيع أن نصلح النظام ونحسِّن وضع الجالية.

ومن هذه الإصلاحات. الأمور التالية:

1 ـ اجراء انتخابات كل سنة لانتخاب الإمام، لأن الانتخابات لم تجرى منذ سنة 1999.

2 ـ السماح للنساء بالمشاركة في هذه الانتخابات لأن القيادة الحالية لم تسمح للنساء بالإدلاء بأصواتهن لانتخاب الإمام.

3 ـ كل سنة يعين الإمام رئيساً للجمعية كما يعين الإمام هيئة الجمعية، مع أن هناك الكثير من الإخوة والأخوات المؤهلين لقيادة الجمعية.

4 ـ فتح أبواب المكتبة للجميع رجال ونساء، ومن الظلم أن تبقى المكتبة للإخوة فقط.

ـ إمام جاليتنا سلفي علناً، يلجأ إلى تفسير للإسلام جامد وقاسي كالتفسير الذي تتبناه حركة طالبان وهذا الرجل لا يستحق أن يكون إماماً، لأن أكثر المسلمين في مدينتنا لا تنتمي إلى الوهابية، ونحن متأكدين أن التفسير الجامد للوهابية بعيد كل البعد عن العقيدة الإسلامية الصحيحة.

ـ قامت غالبية المساجد في «أيوا» الصلاة على أرواح ضحايا 11 سبتمبر، ولكن رئيس الطلبة المعين من الإمام رفض أن يصلي المسلمين على غير المسلمين بالرغم من وجود مئات الضحايا من المسلمين الذين كانوا يعملون في مركز التجارة العالمي، نحن نعتبر أن المسلمين وغير المسلمين كلهم خلق الله.

ـ الجمعية في هذا المسجد لم تستدعي خطباء سوى من الوهابيين، وذلك لأن الإمام يفحص الخطيب وتتم غربلته قبل دعوته، ويقيمون المؤتمرات ويدعون الناس إليها ولا يذكرون أن هذه المؤتمرات للوهابية.

لا نصدق أن تحدث مثل هذه التصرفات المتخلفة في أمريكا في القرن الواحد والعشرين، أرجوك أن تساعدنا في تغيير الوضع.

التعليق (3)

من امرأة من شمال أفريقيا، تقول:

أنا متأكدة أنك تلقيت رسائل كثيرة تشكرك على كتابك وأنا لا يسعني إلا أن أعبر عن امتناني لك لما تبذله من جهود لمساعدتي والمسلمين كافة وغير المسلمين على حد سواء، على فهم الدين الإسلامي بصورة أفضل. لقد قرأت كتابك الأول، وأنا اقرأ الآن كتابك الثاني.

ـ إنني أعمل مستشارة هندسية في الصناعات البتروكيميائية وأعتقد أن القراءة هي جزء من الجهاد، من أجل السلامة العقلية. لقد وجدت عرضك للحقائق مفعماً بالمعلومات وأنت شاهد حيّ على الذين يعتنقون بالإسلام بأنهم أقدر على اكتساب المعرفة الإسلامية، ممن اكتسبوها بالوراثة.

أنا ولدت مسلمة ونشأت في مجتمع إسلامي في شمال أفريقيا وقد تعرفت على المسيحية من خلال المنهاج المدرسي الذي التحقت به، إن القلة هم الذين حازوا على منفعة التعرف في سن مبكرة إلى الأديان المختلفة.

إن الذين يتخذون خطوات جريئة كاعتناق دين آخر هم من كانت لهم المقدرة في التفكير خارج نطاق البيئة ومن كان لهم إطلاع على الأديان الأخرى إنني أخشى على المسلمين بالولادة أن يكونوا مترددين عندما تتعرض بعض المعتقدات الإسلامية للتساؤل لأنهم لم يتعمقوا في دراسة دينهم، ونادراً ما يستطيعون الدفاع عنه إذا نشأ حوار.

لقد جرى حوار بيني وبين مجموعة من المسلمين بالولادة والمثقفين جداً، وجدت نفسي الوحيدة التي أرى أن مفهوم الإيمان بالله يتجاوز الأديان كلها ويسمو عليها وأننا إذا كنا نؤمن حقاً فعلينا أن لا ندين الناس الطيبين الخيرين من الشعوب والأديان الأخرى، وأن لا نحكم عليهم بالكفر لمجرد أنهم لم ينطقوا بالشهادة.

إن المسلمين بالولادة أشد حاجة إلى كتبك من الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً.

أرجو أن تتابع إسهاماتك في مساعدة المسلمين على فهم الإسلام.

التعليق (4)

عن شابة مسلمة تزوجت رجلاً غير مسلم

تقول الرسالة: إني اقرأ كتابك (الصراع من أجل الإيمان) وقد وجدته ممتعاً

جداً، وأعتقد أن الطريقة التي أسلمت بها مؤثرة جداً، وقد رأى والدي على غلاف الكتاب أنك أستاذ في جامعة كنساس، فبحثت في الإنترنت وحصلت على عنوانك الألكتروني.

ـ إني بحاجة إلى مساعدتك في وضع أختي، كانت أختي متدينة وترتدي الحجاب وقد انتسبت على جمعية الطلبة المسلمين، وقد ألقت خطباً عديدة حول حقوق المرأة في الإسلام، ولكنها بعد تخرجها مهندسة تركت الإسلام وصارت تقول أنها لا تؤمن بالله، ولكنها لا تؤمن بدين معين، وقبل ذلك كانت قد سألت أمي عليها بعض الأسئلة حول الإسلام وقد أجابتها أمي عليها ورضيت بها، ثم بعدها قالت لأمي أنا لم أعد مسلمة لأنها لم تفهم قضية القضاء والقدر ولا تؤمن بها، ولا تؤمن ببعض القضايا التي تتعلق بالمرأة.

دعا والدي أربعة علماء متخصصين في الإسلام إلى بيتنا في عدة مناسبات، وجلست مع كل واحد منهم، وقد أجابوها إجابات جيدة ولكنها ما زالت مصرَّة على عدم انفتاح قلبها على الإسلام ثانية.

حصلَت على منحة دراسية كاملة لأفضل كلية هندسة، ولم يستطع والدي منعها من قبولها لأنها كانت تبعد عن البيت مسافة أربعة ساعات، فاضطرت للسكن في الكلية وفي كل مرة تأتي أختي إلى زيارتنا، يجري نقاش في الدين لأن والديَّ متدينان جداً ولم يستطيعا القبول بارتدادها عن الدين، وبعد سنتين قرر والدي أن يتبرأ منها وبعد خمسة شهور، اكتشف الوالدان أنهما لن يستطيعا الاستمرار على هذه الحال، فقرّرا إعادة العلاقة معها واشترطت أن لا يكلمها أحد في الدين، وأن نقبل ما تختاره زوجاً لها.

وافق والداي على هذين الشرطين، وجاءهما عرض للزواج بعد ستة اشهر ولكنها رفضت وصارت تبكي عندما سألتها أمي عن السبب، وأخبرتها أنها تحب شاباً ملحداً وقد طلب يدها، وسألت أمي إن كان بإمكانها الزواج منه، فاشترطت أمي عليها أن ينطق بالشهادة على الطريقة الإسلامية وأن يتحدث إلى عالم

إسلامي، فوافق وتزوجها، وتقول أختي أنها في بداية العلاقة مع هذا الشاب، حاولت أن تقنعه بالإسلام ولكنه رفض، واستطاع أن يبعدها بدلاً عن ذلك عن عقيدتها.

إننا نريد شخصاً يقنعه بوجود الله، فإن اقتنع تأتي الخطوة التالية وهي التحدث عن الإسلام، فإن آمن ربما يعيدها إلى الإسلام، فهل لك أن تبعث له برسالة الكترونية وتشرح له كيف كنت ملحداً قبل أن يهديك الله إلى الإسلام؟

إننا نثمن كثيراً هذه المساعدة لنا، وأعتذر عن إطالة الرسالة، وأرجو أن تُعلِمنا إن كنت تستطيع مساعدتنا.

الجواب:

إنني أرغب في الحديث مع هذه الرجل، ولكن من الأفضل ان يبادر هو، ولا أعتقد أن شخص غريب بالنسبة له قد يدفعه إلى الإسلام، وقد يصبح أكثر إصراراً وعناداً، أعتقد أن أفضل استراتيجية، هي محاولة استرداد أختك واكتسابها أولاً، فإن عادت إلى الإسلام فإنها ستؤثر في زوجها بلا ريب، ومن المهم أن تحافظوا على علاقات وثيقة مع أختك وزوجها، وادعوهما إلى مشاركة الأسرة في مناسبات مثل الإفطار في رمضان والاحتفالات الدينية وما إلى ذلك، واعطوهما فرصة الإعجاب ببعض الأمور الخيّرة والجيدة في حياتكم وسلوك أسرتكم الناجمة عن الدين، فإن ظلَّت أختك قريبة ووثيقة الصلة بأسرتها فربما تشعر يوماً ما بالحاجة إلى إعادة النظر في إلحادها والرغبة في اكتشاف الإسلام بصورة أعمق.

وأعتقد أن ما عانته أختك بعدم الاقتناع بمسألة القضاء والقدر التي تمثل اتجاهاً واحداً عند الكثير من المسلمين فهذا الاعتقاد مخيب للآمال، لأن الله لا يمكن أن يجبر البشر على الأعمال الشريرة والسيئة، فهو العادل المطلق وكذلك بالنسبة للتفسيرات الظالمة للمرأة فهي غير مقنعة، يبحث كتابي (حتى الملائكة تسأل) هذه الإشكالات وغيرها، فأنا لا ألوم أختك، ولا والديك، إني أتعاطف

معكم جميعاً، وأشعر بالخوف من أجلكم، وللأسف فإن هناك الكثير من النساء الأمريكيات المسلمات يخضن هذه التجربة المؤلمة هنَّ وأسرهنَّ.

إن الطريقة التي تُعلّم بموجبها الجالية الإسلامية وتطبقها، ربما تكون نافعة في المجتمعات الإسلامية، ولكن الكثير من الشباب الأمريكيين المسلمين لا يستطيعون الانتماء على هذه الآراء والأفكار القديمة، ولا يمكن الدفاع عنها، وخاصة أنهم يتعرضون لأفكار بديلة يدافع عنها أصحابها ببراعة.

وأنا سأكون سعيداً إذا حاولت أختك وزوجها الإتصال بي.

التعليق (5)

ـ لقد دهشت بالعدد الهائل من الرسائل التي تلقيتها من ملحدين، لم يكن تحول هؤلاء إلى الإلحاد يدهشني ولكن الذي أذهلني، هو الجهد الذي بذلوه للاتصال بي لبحث قضية تركهم الإسلام، لماذا البحث مع شخص يؤمن بالإسلام، وليس بملحد هذا لأمر عجيب.

التعليق (6)

هذه الرسالة من طالب هندسة من الجيل الثاني اعتنق المسيحية ثم تركها، وهو الآن لا ينتمي لأي دين، وكان يشعر أن الدين الإسلامي ليس فيه روحانية.

يقول: أريد فقط أن أخبرك بأني استمتعت حقاً عندما سمعت محاضرتك التي القيتها في نهاية الأسبوع وقد استفدت كثيراً منها ولكن لم أستطيع أن اصل إليك للحديث معك، وقد تأثرت بالتجربة الروحية والعاطفية التي خضتها وأنت تقرأ القرآن.

لقد تحولت إلى المسيحية لأنني وجدت فيها شيئاً من الروحانية وكان الإسلام بالنسبة لي، مجموعة من الأحكام الفارغة ولا يضفي أي شيء من الروحانية، على أي حال فأنا لم أعرف الله من قبل حتى عندما كنت مسلماً،

وأعتقد أنه لا يمكن التدين بأي دين إن لم يكن للاتصال الروحي دور، أرجو أن تساعدني لأن القلق يضرب جذوره في أعماق نفسي ولا يفارقني.

الجواب:

أشكرك على كلماتك اللطيفة، لم تشتمل محاضرتي على خبراتي الروحية لأنها لم تكن ملموسة ومن الصعب شرحها، كانت محاضرتي عن الجوانب العقلية لقراءتي الأولى للقرآن، لأن هذا الجانب يصل إلى الناس بسهولة أكثر.

بما أنك تبحث عن المشاعر الروحية فسوف أشركك ببعض خصوصياتها: لقد بدأ بحثي عقلانياً، لأني أعتقد أنه إذا كان هناك إله فلا بد أن يهبنا عقلاً، وهو برأيي أقوى ملكه وهبنا إياها، ليساعدنا ويحمينا من المعتقدات الخاطئة، وكنت أعتقد أن عواطفنا الروحية أكثر عرضةً للخطأ من العقل المدرب المنظم، وكانت مشكلتي أن عقلي كان يتعارض مع المعتقدات التي حققت فيها، لذلك كان القرآن استكشافاً عقلانياً، اتخذت هذه القراءة فيما بعد شكلاً روحانياً.

عندما بدأت اقرأ القرآن لأول مرة، لم يكن لديَّ ميل للإيمان بالله ولم أشعر بالتجربة الروحية إلا بعد أن استنفدت كل المناقشات ضد وجود الله ولم أكن أتوقع أو أسعى إلى الوصول للشعور الروحاني، بل بالعكس كنت أقاوم اللحظات الروحية التي تنتابني وأحاول أن أبعدها، ولكنها حصلت.

أعتقد أنك محق في قولك أن الروحانية جزء مهم وحيوي من الإيمان، وأستطيع أن أفهم تجربتك الإيمانية في الإسلام إنها كانت قاحلة روحياً، لأن المسلمين كما يبدو لي قد قتلوا الرسالة الروحية الإسلامية، وأبدلوا هذه الطاقة الروحية، بشعائر متشددة وأحكام وعقوبات سياسية أكثر مما هي دينية، واستبعدوا البعد الروحي والاخلاقي الذي هو رسالة القرآن الأصلية.

لم أزل أسمع منذ عشرين سنة خطب الجمعة هي نفسها ولم أسمع أي محاضرة تربط الإيمان بالأعمال الصالحة والروحانية وعلاقتنا مع الله، ولو أني اعتمدت على هذه الخطب والأحاديث التي أجريتها مع بعض المسلمين كنت

سأفهم الله وكأنه قوة حسودة حاقدة غايتها فرض القرارات والأوامر لاختبار مدى طاعة الناس لها ثم يتربص بنا حتى إذا ارتكبنا أي خطيئة صبّ جام غضبه وأقسى عقوباته علينا.

أعتقد بأن المسلمين سيشعرون بالمذلَّة والمعاناة التي لحقت بهم منذ انهيار حضارتهم ولذلك فهم يحاولون أن يجعلوا من الإسلام مجرّد حركة سياسية تجعلهم القوة الأعظم، وأحب أن أقول لمن يفتش عن الروحانية فهو لن يجدها عند الجالية الإسلامية، وعليه أن يبدأ بقراءة القرآن بذهن مفتوح قدر الإمكان متحللا من أي التزامات قد تلقنها من قبل.

اليوم يجد بعض المسلمين الروحانية في الصوفية، أما أنا فلا أؤيدها لأنها لا تتوافق مع شخصيتي وطريقة تفكيري، وانا أرى أن العقل عنصر جوهري من عناصر الدين، وإذا أحد رأى أن الروحانية تتنافى مع العقل فيعني ذلك أن هناك خطأ في مكان ما، وعليه أن يبحث عن الحقيقة.

أما بالنسبة لك وأنك شعرت بالروحانية في المسيحية ولكنها لم تجذبك عقلياً، وبما أنك تؤمن بالله يمكنك أن تتابع البحث عن هدايته لك، ربما يكون هو الآن يوجهك إلى طريق الهداية ولو لم يظهر لك الأمر، ونصيحتي ألا تستسلم، لأن الإنسان بدون هداية الله، هو إنسان خاسر وضائع، ويقول القرآن:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 168].

ـ أرجو أن يكون جوابي قد ساعدك في حل مشكلتك، وأعتذر إن لم يكن كذلك، وإن كنت ترغب في بحث هذه القضايا أكثر من ذلك فأرجوك أن لا تخجل في أن تبعث لي رسائل ألكترونية.

***

التعليق (6)

رسالة من طالب دكتوراه زائر من قبرص يقول: إن الكثير ممن اعتنقوا الإسلام يشاركوني بالشكوك بشأن الحديث الشريف، ويبدو أن الارتياب في هذه المادة آخذ بالتنامي بين الشباب المسلم في مختلف أنحاء العالم.

واعتقد أن على المسلمين أن يحددوا تراثهم باستمرار، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالشجاعة والجرأة وطرح الأسئلة، إن التباعد والانشقاق شيء خطير، ولكن الأشرار قد حقنوا الممارسات الإسلامية عبر قرون من الزمن بأمور مختلفة لا تتفق مع العقل ولا مع القرآن وهم قد الَّفوا مجلدات وجعلوا هذه الأحاديث أمر مقدس.

أعتقد أنه آن الأوان للعودة إلى القرآن، وقد ضمن الله حماية القرآن من التحريف والفساد، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

كيف نعتمد على أناس معرضون للخطأ ويحللون ويحرمون، إن أمي وجدتي لم يرتديا حجاباً ولا نقاباً يغطيه من الرأس إلى أخمص القدمين، فهل هما غير صالحتين، وأعرف مسلمون لا يأكلون الجيلو لأنه قد يحتوي على مادة الجيلاتين المستخلصة من عظام الخنزير، والقرآن يحرّم لحم الخنزير بالتحديد وليس العظام: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 3]. لماذا يضعون قيوداً إضافية، وحكاية الآية الضائعة التي تأمر بقتل ورجم الزاني والزانية تبين خطورة هذه المقاربة للأحكام الإلهية إنهم يسعون إلى إقامة إسلام فاسد وبغيض وممقوت.

إن الكثير من مصادر الأحاديث آتية من أجيال متخلفة وفيها أمور مضحكة، إن المسلمين اليوم يسيرون على خط ومنطق اتبعه علماء الكتاب المقدس بالتحريف والفساد.

التعليق (6)

هذا سؤال من أسئلة كثيرة قد وردتني، يسألون فيها عن غاية الحياة، لذلك ضمنت هذا الكتاب فصلاً آخر عن غاية الحياة، وقد علمت أن المؤسسات الإسلامية الأمريكية أنها غير مهتمة بهموم الشباب المسلمين ومشاكلهم.

يقول السائل: إنني أعاني من مشكلة خطيرة وآمل أن تجد وقتاً تجيبني فيه عن همومي، أؤمن بأن هناك قوة خلقت هذا الكون، والمسلمون يعرفون هذه القوة بأنها الله، ولكني أرى أن الله ليس عادلاً، لماذا يسمح بتعذيب الأبرياء وقتلهم في أفريقيا وآسيا؟ لماذا يعاني بعض الناس من أمراض غريبة ولو أن الله يسيطر على هذا العالم لما كنا نعاني في هذا العالم وتحلّ بنا المصائب والمحن، وغالباً ما أشعر أنه من الأفضل ألا آخذ الدين مأخذ الجد، بل أقيم الصلاة وأدفع الزكاة وأصوم شهر رمضان وأهمل البقية وأجعل هدفي في الحياة هو الإسهام بسعادة الآخرين قدر المستطاع ولكني لا أريد أن أكون عميق الإيمان بالله، وليس هو بنظري بلا عيوب ولسنا بحاجة أن نتذكره باستمرار ونواظب على عبادته بلا ا نقطاع ولا أريد أن أضيّع وقتي في قراءة القرآن، فهناك أمور أخرى يعملها المرء في حياته كالاهتمام بعمله ورعاية أسرته، وأشعر أنك إذا تابعت التفكير في الله والدين فلن يبقى عقلك سليماً، وهكذا فلا حاجة ليكون المرء مسلماً ليكون من الأخيار وينجو من العذاب، ربما هناك مسيحيون وملحدون سينجون من العذاب، ولكن هل يمكن لمن مثلي أن ينجو من العقاب، إني انتظر جوابك على[1] أحر من الجمر.

التعليق (7)

إن غالبية الذين اعتنقوا الإسلام في أمريكا هم من النساءن ومعظمهن

---

(1) لقد فقدت الاتصال بصاحب هذه الرسالة ولكن يستطيع أن يقرأ الجواب عن غاية الخلق في هذا الكتاب.

خريجات جامعات ويملن إلى اليسار اجتماعياً وسياسياً وقد أظهرن التزاماً أقوى من الرجال مع العلم أن معظم المساجد والمراكز الإسلامية تروج عادات ومواقف تجاه المرأة تصطدم مع القيم الغربية النسائية.

تبين هذه الرسالة بعض الإحباطات التي أصابت السيدات.

تقول الرسالة: اعتذر عن الكتابة إليك لأني أعرف أنك غارق في العمل، لقد ارتحت كثيراً لكتابيك الأولين، وأنا أؤمن بالإسلام منذ سبع سنوات وقد سمعت بك قبل اربع سنوات في أحد المؤتمرات الوحده، وذكرك أحد المتكلمين وشاهدت شريط فيديو الذي أصدرته مؤخراً حول تربية أطفالنا في الإسلام لنحتفظ بهم، ورأيت عاطفتك التي جعلتك تبكي وجعلتني أبكي أنا أيضاً.

كنت تتحدث وكأنك تتحدث نيابة عني بشأن التجارب الرهيبة التي خضناها مع المتشددين في الشريعة والمقيدين بثقافتهم المهوسون بالأحكام، المجانين في الحديث.

لقد طُردت من مسجدي المحلي، وذلك لأني حاولت دعم المعتنقات المسلمات، فطلبت زوجة الإمام وهي من النمط الطالباني، من النساء أن لا يتكلمن معي لأني رفضت ارتداء الحجاب في الخارج ولأنني اذهب إلى مسجد الصوفيين في فيلادلفيا وهو أحد الأماكن التي أشعر فيها أني مقبولة، ولي صديقات متعلقات بالإسلام بخيط واهٍ يتجنبن الجالية ذاتها، ويبعد المسجد الصوفي عنا حوالي الساعة، وأحياناً أبكي وأقول: لماذا صرت مسلمة؟ ولكني أشعر أني مسيَّرة روحياً.

الإسلام وحده من الأديان الذي يهتم بالقضايا الاجتماعية العادلة، وأنا وصديقاتي نحب أن نكون مسلمات ولكن نحب الهوية الأمريكية، ونحن ناشطين اجتماعياً وسياسياً، ولكن لا نحب أن يُضغط علينا لنلتزم بالتقاليد الشرقية، التي تلزم الرجال بلبس الجلابية والكوفية، وتلزم النساء بالنقاب، ونقوم حالياً مع مسلمين آخرين بإيجاد طريق وسطي للإسلام. وقد جعلني كلامك أشعر أني فعلاً

أفعل ما هو صحيح، وأنه عليَّ أن أتابع القول والعمل حتى الممات وإن لم يصغ لي أحد، وقد اصبحت لنا شبكة من المسلمين التقدميين تقدم عوناً كبيراً، وهذا الأسبوع أدينا صلاة الجمعة في منطقة من مركز المدينة، وبحثنا احتمال أن تصلي النساء مع الرجال ولكن النساء في جانب وفي الجانب الآخر للرجال، وأن تتبادل الخطب بيننا، وأنا أشكرك جداً، وإن كان لديك عناوين الكترونية أخبرنا عندما يصدر كتابك التالي.

التعليق (8)

هذه رسالة من سيدة من أحد المهاجرين إلى أمريكا، من الذين خرجوا عن دينهم ولكنهم عادوا يشعرون بالاهتمام من جديد بعد أن تزوجوا من متدينين من أبناء ديانات أخرى، تقول السيدة في رسالتها:

أنت لا تعرفني، وأنا لم أسمع بك إلا منذ أسبوعين فقط، حين أخبرتني إحدى صديقاتي في المسجد الذي أتردد عليه عن كتابك (حتى الملائكة تسأل) فاشتريته وقرأته.

إن كتابك قد ردَّ إليَّ شيئاً مما افتقدته من إيماني، وهو الأمل لي ذكَّرني كتابك بالجمال والمعنى الروحي للإنسان الذي يختلف عما تعلمته من الكثير من المسلمين، وقد تشجعت لأن أتابع رحلتي الروحية لأجد الله.

أنا مسلمة بالولادة، ولدت في تركيا ونشأت فيها وأسرتي ليست متدينة كثيراً، والدي يؤمن بالله، ولكن لا يؤمن بالدين وأمي مسلمة ولكنها لا تمارس الشعائر الدينية، وعندما بلغت السابعة عشرة من عمري جئت إلى أمريكا بمنحة دراسية ولكن أدى بي المطاف إلى ترك الجامعة وبقيت في أمريكا، اقيم الآن في (ساوذرن أورنج كنتري) في كاليفورنيا.

كان لي اهتمام بالأديان وخصوصاً بالإسلام واريد أن أفهمه ولكني لم أبحث بجدية وكنت أسأل من كان حولي بطريقةٍ سطحية، وقد فهمت أن القرآن يقول: هناك أمور يجب أن لا تسألوا عنها جعلتني هذه المقولة أبتعد عن البحث

وبمرور الزمن فقدت الاهتمام بالوصول إلى الحقيقة إلى أن تزوجت شاباً أمريكياً مسيحياً، ولأنني أحبه فقد تعرفت على المسيحية وانبعث الاهتمام عندي من جديد لمعرفة الله والدين، وبدأت أبحث عن الحقيقة ثانية، صرت أذهب إلى المسجد وألتقي بالمسلمين، والحمد لله التقيت بإمام المسجد وسألته أن لا يكون هناك غضاضة في دراسة القرآن معه فأجابني وقال أنه سيرتب وقته لهذا الأمر وما زلت أدرس معه القرآن منذ شهرين، ولكن ما زالت لديَّ أسئلة كثيرة لم يستطيع الإجابة عليها بما يرضيني وبعد أن قرأت كتابك، خطر لي أن أتوجه بهذه الأسئلة إليك أعتقد أنك على بصيرةٍ ومعرفة كافيتين لتلقي بعض الضوء على بعض الأمور التي أراها مزعجة في الإسلام، وفي القرآن وفي حياة النبي، أريد أن تساعدني في بحثي عن الله مع العلم أني أعرف أن لديك برنامجاً مشغولاً جداً، وأعذرك إن لم يكن لديك الوقت لذلك.

الخاتمة

إلى الإخوة والأخوات

إن مجتمعنا الإسلامي الأمريكي غارق في صراع فكري ديني إن شئنا أو أبينا، وإن أعداداً هائلة من أولاد وأحفاد المسلمين يتخلون عن الدين نهائياً، والدين الإسلامي يُهان علناً في وسائل الإعلام وال مواقع الالكترونية المناهضة للإسلام، ومن جهة أخرى من التفسير السَّام وغير المعقول المدعوم من جهات خارجية ومن معظم المساجد في أمريكا التي تفرض تقاليد ومعتقدات مشكوك فيها باسم الإسلام، تشوِّش الرسالة الجوهرية التي جاءت بها آخر رسالة سماوية، وتُخرج الأفراد زرافات من الدين، وبدلاً أن يرى هؤلاء المسلمون أن الدين حاجة ماسَّة إلى النمو الروحي والتنويري، فإنهم يرونه رجعياً متخلفاً مقيداً بتقاليد مأخوذة من قرون مضت لا حياة فيها.

المسؤولية تقع عليكم أيها الشباب الأمريكيين النشطاء، لأنكم تعرفون المجتمع المحيط بكم تمام المعرفة، وأعتقد أن هذا سيكون بمثابة إختبار إلهي لكم إن كنتم فعلاً مؤمنين وملتزمين بدينكم، إنكم في أفضل وضع يؤهلكم للردّ العقلي والمنطقي على اللذين يتمسكون بتراثٍ ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، وعيلكم أن تبحثوا عن الإسلام الحقيقي، وتُميزوا بين ما هو ضروري وجوهري للإسلام، مع مراعاة الزمان والمكان، فهذا جهادكم، وهو جهاد العقول والقلوب، وجهاد الفكر والمنطق.

لذلك عليكم واجب إجراء البحوث بطريقة علمية حديثة، في التاريخ وعلم الإنسان، والدراسات الدينية، لتكونوا قادرين على نقد التقاليد وإعادة تقويمها، وعليكم أن تتسلحوا بالشجاعة والصبر والمثابرة وبالتواضع، لأنكم ستواجهون معارضة من الداخل ومن الخارج، وتذكروا دائماً أن الهدف الأسمى هو البحث عن الحقيقة، لأن الله هو الحقيقة، فصلّوا له وادعوه وثقوا بهدايتهِ ولا تنسوا أنكم أسلمتم أنفسكم له وحده وليس للتقاليد ولا للجالية المحلية، واعلموا أن حياتكم ومماتكم وتضحياتكم كلها لله.

والحمد لله.

محتويات الكتاب

مقدمة الناشر 5
المقدمة 7
الفصل الأول: 14
ضياع ديني 14
هل أنت تتحدث إليّ؟ 19
ـ فتحت الكتاب، وبدأت أقرأ في الصفحة الأولى: 19
أسئلة وأجوبة 26
الغاية من الخلق 36
البشر ليسوا ملائكة: 37
دور العقل: 37
ظهور الإسلام في الجزيرة العربية 41
خيار صعب 43
لماذا يعاني الإنسان من الآلام: 45
حب الله للمتقين والصالحين 48
كيف نعرف الله؟ 49
صفات الله 50
التجربة والممارسة للخير والشر 52

لا إنكار لوجود الله 57
الفصل الثاني 69
ـ إذن ما هو الحل؟ 71
1 ـ مكانة المرأة: 71
بين عالمين: 74
إننا ننقسم وعلينا أن نتوحد: 78
ماذا يمكننا أن ن قوم به؟ 78
الإيمان، العقل، المستقبل 81
توضيحات للصراع وأسئلة 86
رسائل وتعليقات 95
التعليق (1) 95
التعليق (2): 96
التعليق (3) 97
التعليق (4) 98
التعليق (5) 101
التعليق (6) 101
التعليق (6) 104
التعليق (6) 105
التعليق (7) 105
التعليق (8) 107
الخاتمة 109
إلى الإخوة والأخوات 109